





تارا ورحلة المليون



رواية

أنور مصطفى يروا ري

# تارا ورحلة المليون



## جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية :	1434هـ / 2013 م
عنوان الكتاب :	تارا ورحلة المليون
تأليف :	أنور مصطفى بروري
عدد الصفحات :	224 صفحة
قياس :	22 x 14
صف وإخراج :	غنى الرئيس الشحيمي
الناشر :	مكتبة حسن العصرية
العنوان :	بيروت - كورنيش المزرعة بناية الحسن سنتر - بلوك 2 - ط 4
هاتف خليوي :	009613790520
تلفاكس :	009617920452 - 09611306951
ص.ب. :	6501 - 14 بيروت - لبنان
الترقيم الدولي :	7 - 70 - 561 - 9953 - 978

E-mail: Library.hasansaad@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف:

anwer340@yahoo.com

طبع في لبنان 2013 Printed in Lebanon

**الإهداء**

**إلى شهداء رحلة المليون**

**أنور برواري**

## السيرة الذاتية

- 1- مواليد 1948، دهوك / العراق.
- 2- تخرج من كلية العلوم / قسم الجيولوجيا / جامعة بغداد 1971.
- 3- فنان تشكيلي من جماعة الانطباعيين العراقيين منذ أواسط الستينات من القرن الماضي و اشترك في معارضهم.
- 4- أقام سبعة معارض فنية شخصية، واشترك في معارض جماعية كثيرة منذ أربعين سنة
- 5- أصدر الروايات التالية :
  - أ- تارا و رحلة المليون 2002.
  - ب- دلشير 2003.
  - ج- مزرعة الفراشات الجميلة 2004.
  - د- بيريفان 2006 .
- 6- تأخر طبع الروايات بسبب أجهزة الرقابة للنظام السابق في بغداد.
- 7- يهوى الموسيقى ( يعزف عدة آلات ) ويمارس الرياضة بانتظام.
- 8- عمل موظفاً في الدوائر الحكومية الرسمية لمدة أربعين سنة.

كان صباح يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار عام 1991 صباحاً جميلاً، فرشت فيه الشمس أشعتها فوق جبالنا التي تعرضت كثيراً إلى موجات الغزاة عبر التاريخ. وكنا نتظر أن يكون ذلك الربيع مختلفاً عن سابقاته، فلقد اشتقنا إلى ربيع كثير الخضرة والورد والرقص، ربيع لنا وحدنا وليس فوق رؤوسنا من يعكر مزاجنا ويقلق راحتنا ويتعرض إلى حريرتنا التي أرقنا من أجلها دماء زكيه عبر رحلة التاريخ الذي لم ينصف غير من ظلم وقتل وحرقت وأباد. وكانت مدينة دهوك، إحدى المدن الثلاثة الرئيسية في كردستان العراق تعيش في رعب شديد، وقد هجرها أهلها وتركوا وراءهم كل شيء، لعلهم يحافظون على أرواحهم، تركوا المدينة بشكل عشوائي دون هدف غير التستر بوعورة الجبال، والهرب خارج الحدود الدولية أن أمكن ذلك؛ خوفاً من بطش قوات السلطة.

كان الجيش قد بدأ زحفه لدخول المدينة منذ الصباح الباكر، وأخذ يحيط الجبال التي تحيط بالمدينة بالمدفعية الثقيلة، وكان ذلك كافياً ليدخل الرعب إلى قلوب أشجع الرجال، حيث لازالت عمليات الأنفال وبشاعتها اثلة أمام أعيننا. في ذلك الصباح، قررنا أنا وثلاثة من اخوتي أن ننضم إلى قوافل المهاجرين، سيما وأن قوات السلطة تستهدف قتل















































- يجب أن نصل إلى أقدام جبل متين، فعبوره يتطلب حوالي نصف نهار، وذلك يعتمد بالأساس على وضعنا العام، وإذا سارت الأمور لصالحنا

- من أين نعبّر الجبل؟، من بامرني حيث أقصر الطرق، ولكن ذلك المعبر وعر للغاية وقاس كما أعرف، حيث لم يسبق لي عبوره.

- لقد عبرته أنا في منتصف الخمسينات في الليل، وكنت يومها طفلاً، وساعدني سيد صالح ومن ثم حملي على ظهره لمسافات طويلة وفعل ذلك أيضاً في المعابر الصخرية القاسية.

فقال فهمي:

- سيد صالح، أبن عم الوالد، القائد الحربي

- نعم، وقد كان يومها جندياً في الموصل، وأرسلني والدي معه إلى القرية للإقامة مع جدي وجدتي رحمهما الله وأعمامي بعد انتهاء السنة الدراسية، وأذكر يومها أننا أدركنا إحدى القرى بعد عبور الجبل بعد منتصف الليل وكانت تبعد عن قريتنا بضعة كيلومترات، وتركوني أنام في كنف أسرة أبنه عم جدي، وفي الصباح أخذني شاب إلى قريتنا.

- يالها من ذكريات

- أغلب الظن سوف نعبّر الجبل من الجهة الغربية، غرب (بامهرني)، من (دهسي)، ثم إلى (كانني به لاف)، ومن هناك نعبّر النهر الذي يمر بقريتنا، وأقصد نهر (نيهنيك)، ثم نصبح على مقربة من بقايا



































































































































- لماذا هذا الموقف المتصلب؟، انظروا إلى الناس حولكم، لقد أصبحوا مجموعات على تلك الأسس، وهذا التعاون مفيد جداً في ظروف مثل ظروفنا، أضفت القول بلهجة عصبية:

- هل نسيت موقف زوج عمتي مساء أمس؟، ألم يقطع ثلاثة أرغفة من قوت أطفاله هو وعائلة عمتي الأخرى؟

فقال عمر على الفور:

- لا بد أن له مصلحة من وراء ذلك؟ وسوف ترى

فقلت بعصبية:

- أية مصلحة في موقفه، ثم ألا تحكم المصالح كل العلاقات في الطبيعة؟ هل أنتما بحاجة إلى أن أشرح لكما ذلك؟

فقال فهمي بعصبية أيضاً وهو يقذف عقب سيجارته بعيداً:

- إن كنت تريد تركنا والانضمام إلى تجمعاتهم فلتذهب.

فقلت له وبعصبية واضحة أيضاً:

- هل جئت يا فهمي؟

فتدخلت نرmin قائلة بعد أن امتلأت مقلتاها بالدموع:

- دعونا في حالنا، ألا ترون أن حالنا لا يسمح لنا بمثل هذه الخلافات الجانبية، فلنحتفظ بهدوئنا، لنستطيع التفكير بشكل سليم.

نرmin هكذا تنساب دموعها بسرعة في مثل تلك المواقف، وكانت تلك الدموع سبباً إلى عودتنا إلى الصمت وأغلقتنا الموضوع.

ثم قالت نرmin بعد أن غمرنا الهدوء:

- ماذا تقول سميرة وعائلتها، بعد أن أنهيينا على كل خزينهم من الخبز، ونحن خمسة أفراد بينهم أربعة رجال خرجنا وليس معنا ما يكفي من الطعام سوى ليوم واحد. ماذا تقول سميرة عنا الآن؟

فقلت:

- هذا صحيح، ويجب أن نفكر بهذه النقطة.

فقال عمر:

- وماذا بمقدورنا أن نفعل؟

فقلت نرمين:

- لا شيء

وفي أثناء ذلك جاء صالح يستطلع أمرنا، ولا بد أن حديثنا أو جزء

منه بلغ سمعه، وقال:

- ما هي الأخبار يا إخوان؟

فقال عمر:

- لا شيء جديد

فقلت له:

- هل تناولت الأدوية؟

- نعم

فقال له فهمي:

- هل أنت بخير؟

- نعم أنا بخير، ألا ترون ذلك؟، قالها وهو يتسم كعاداته

والواقع أن صالح أبدى صلابة لم تكن نتوقعها، فقد كنا نخاف أن

يسقط في أية لحظة، بسبب الجوع، أو التعب حد الإعياء، أو السهر،

إضافة إلى العوامل النفسية المتشنجة التي كنا نعيشها.

ثم عدنا جميعاً، وطلبت من عمر إشعال النار لتدفأ قليلاً، وبعد أن

أصبحنا في المخيم تقربت من سميرة وتارا قائلاً:

- كيف حال الطفلين؟

فقلت سميرة:

- لا بأس شكراً

وقالت تارا:

- انهما يفقدان سوائل كثيرة

فقال لها فهمي:

- إنما حالة عامة سادت بين الأطفال، ولقد وجدنا حالات خطيرة

لدى بعض الأطفال خلال تجوالنا بين تجمعات الناس

وعدت أقول

- إننا نشعر بالخرج، لقد أتينا على ما معكم من الطعام، كان يمكن

أن يكفيكم لعدة أيام أخرى لو كنتم بمفردكم

فقلت سميرة:

- لا تقل هذا، لقد أصبحنا وإياكم أسرة واحدة

- يعلم الله أن هذا هو شعورنا نحن أيضاً بالضبط، ولكنني قلق بشأن

هذين الطفلين، لو كان بالإمكان تدبير لقمة ولو بسيطة، تعينهم على

التغلب على حالة الضعف والوهن

فقلت تارا:

- سأحاول أنا

فقلت نرمين:

- أين؟، هل تعرفين أحداً، هل تستجدين؟

- لا أدري، ولكنني سأحاول

فقلت لها:

- حسناً، سأرسل معك أحداً

فقلت نرمين:

- سأذهب أنا معها

وقالت تارا:

- لا، أفضل الذهاب وحدي

واختفت تارا وسط الجموع الغفيرة، ولم يمض الكثير من الوقت حتى عادت ومعها رغيف خبز، وكان معها ذلك الشاب المسيحي الذي كلمته عندما كنا على الجانب الآخر من الحدود قبل يومين. وبعد أن سلم الشاب مهدوء ذهاباً معاً حيث تجلس سميرة مع طفليها، ودار حديث طويل بينهم باللغة الآشورية، لم نفهم منه شيئاً، وكنت أراقب المشهد باهتمام، حتى أن فهمي قال:

- إن هذا الشاب يحوم حول الجماعة، ولم أعد أطيق ذلك

فقلت بعدم اكتراث:

- الموضوع لا يخصنا، ثم أنه قدم لهم العون وقد فشلنا نحن

وكنت أميز مشاعري التي انتابني عندما ظهر ذلك الشاب مرة أخرى، وأنا أراقبه وهو يتحدث إلى تارا باهتمام، لقد كانت غيرة واضحة لا يرقى إليها الشك، ولم يهدأ لي بال حتى غادر مخيمنا ذلك الشاب الهادئ في كل شيء.

وحدث هذه المرة أن تارا كانت تراقبني، وقد اكتشفت ارتباكِي، وتوتر أعصابِي، والنظرات التي كنت أرمق بها ذلك الشاب، حتى أنها قالت لي بعفوية وهي تبتسم:

- أستاذ شفان لا تقلق، كل شيء يجري بسلام

وقامت سميرة بتوزيع الرغبة بين طفليها وسط أنظارنا، فقد كان كل منا يتمنى أن تكون في يده قطعة ولو صغيرة من ذلك الرغبة! ولما شعرت بذلك حاولت أن أبتعد بضع خطوات، وتبعني فهمي وتبعتنا نرمين تهرباً من ذلك الموقف الذي لم يخطر ببال أحد أن يمر به يوماً ١.

قلت لنرمين:

- كيف أنت؟ هل ستصمدين أمام الجوع؟  
- أنا بخير لحد هذه اللحظة، ونحاول عدم التحرك كثيراً أو القيام بمجهود عضلي أليس كذلك؟  
فقال فهمي:

- لو كان معنا فراش وثير ودافئ لما خرجت منه شهراً كاملاً، إنني أتوق إلى نوم هادئ في فراش دافئ وثير، وقلت أنا:  
- وأنا أحلم الآن بوجبة مشويات مع كمية وافرة ومتنوعة من الخضراوات والفاكهة، ومن بعد ذلك قدح شاي من النوع الفاخر (مهيل) وساخن.  
وقالت نرمين:

- وأنا أتمنى أن أغمض عيني لحظة، ثم افتحهما وأجد نفسي في بيتنا لأحضر أمي وأبي، ثم نجلس معاً على سفرة الطعام ولا يهمنا نوع الطعام.

ونادى فهمي على عمر، ولما حضر قالت له نرمين:  
- عمر لقد تمنى كل واحد منا أمنية، وقامت بسرد ما دار بيننا من حديث، ثم قالت له:  
- ماذا تتمنى أنت اللحظة؟  
فقال عمر وعلى الفور:

- أن يكف ذلك الشاب المسيحي عن زيارة (الجماعة).  
فقال فهمي مازحاً:  
. هل تغار منه؟  
فقال عمر ضاحكاً:  
- أنا؟ كلا. ولكنه كما ترون بدأ يشكل خطراً على سلطة الزعيم،  
وأشار إلي مضيفاً:  
- زعيمنا الورد الذي لا يستطيع توفير عدة أرغفة خبز لشعبه، الذي  
يكاد يموت جوعاً.  
ثم مسح صدري بكفه وأضاف قائلاً:  
- أي زعيم أنت!  
فقلت نرمين:  
- لم أفهم شيئاً!  
وسارع فهمي إلى القول:  
- ولا أنا  
فقال عمر:  
- ولكن الزعيم فهم جيداً، وعليه أن يستدرك أمره، لأن كرسي  
حكمه بدأ بالاهتزاز  
ضحكنا جميعاً كأن الأمر كان دعابة عابرة نحاول بها أن نبقي على  
تماسكنا النفسي وتمتين جسور الألفة والمحبة بيننا وبخاصة بعد تلك  
المناقشات المتشنجة التي دارت بيننا قبل ذلك، والتي دفعت نرمين إلى  
البكاء، حرصاً منها على أن تسود المحبة وروح الأخوة علاقاتنا مهما  
كانت الظروف.

وسألت نفسي، ترى هل تأكد عمر من أنني بدأت أهتم بتارا بشكل جدي؟، وأنها أصبحت تستحوذ على إعجابي، ومن جانبي تمنيت لو كنا أنا وتارا تلك اللحظة في أفخر مطاعم دهبك نتناول أشهى الطعام وتبادل أجمل الكلمات، في ظروف ليست مثل ظروفنا تلك، دون حواجز من شأنها أن تجعل لقاءنا أقرب إلى المستحيل. ومضى ما تبقى من ذلك النهار، وكانت الغيوم تنذر بمزيد من المطر، وزاد البرد وسرعة الرياح؛ فذهبنا أنا وفهمي وعمر نبحث عن بعض الأخشاب المناسبة لنستعملها كحطب في المساء وفي الليل. وأطلقنا على أنفسنا أسم (الثلاثة الممتازون)، فقد كنا نؤلف قوة صلبة تأبى الاعتراف بالضعف والهزيمة، وكنا ننجز المهمات الصعبة والشافعة، وكان عمر أهدأنا طباعاً، ويحتفظ بروح الدعابة في كل الظروف. أما صالح الذي تركناه في المخيم فهو الآخر مقاتل ممتاز أيضاً.

وعندما عدنا ببعض الحطب، طلبت من صالح وتارا أن يتأكدا من متانة ربط البطانيتين اللتين وضعناهما فوق الخشبتين الطويلتين المائلتين لتصمدا أمام المطر أو الرياح حيث بدأ السماء يستعرض غضبه من جديد، فزادت كثافة الغيوم واشتد البرد كثيراً، وفي ظل وضعنا قال عمر مازحاً:

- إننا ربما الآن نمثل فلماً هندياً مثل (أم الهند)،

فضحكنا جميعاً.

كلما كان يمضي الوقت، يزداد توتر أعصابنا، ويتنامى شعورنا بالجوع، فأخذنا نلوم بعضنا البعض، حيث قال فهمي:

- لماذا لم تفكر ساعة خرجنا أن نأخذ معنا الشاي، إنها خفيفة، أو مجرد كمية من السكر، ولماذا لم تفكر بذلك في مانغيث بينما كنا حريصين أن نتزود بكمية وافرة من هذا السم الزعاف (ويقصد علب السجائر)؟

فقال عمر معلقاً:

- أو التموين الجاف، مثل الجنود

وقلت لهم:

- هذا الكلام لا يفيدنا الآن، دعونا نفكر بواقعنا الحالي

فقال صالح معلقاً:

- لنطلب من الزعيم بعض الطعام، هل هناك زعيم نام دون طعام؟

فضحك الجميع عدا تارا فقد اكتفت بابتسامة قصيرة وقالت:

- إنكم تضغطون على الزعيم كثيراً، ماذا بمقدوره أن يفعل لنا؟

فساد هدوء للحظات، وأخذ فهمي وعمر ونرمين بتبادل نظرات تكمن خلفها كلمات كثيرة عزفوا عن طرحها على شكل منهج كلامي، ولكنني فهمت تلك النظرات بشكل دقيق. وقالت نرمين معلقة:

- هكذا يكون خوف الشعب على زعمائه يا إخوان

فامتلاً وجه تارا بالدم، وتوردت وجنتاها، وأطرقت برأسها، وأخذت عيناها الواسعتان الجميلتان تضحكان ذلك الضحك الهادئ الذي كان أحد الأسباب التي جعلتها تستحوذ على قلبي وجلست على عرشه وطهرته من كل ما علق به مما مضى من آثار الدغدغات السابقة، وحلت ضيفة عزيزة على تفكيرتي، وسلبت خيالي وعلمتني سر القوة

ووهم السعادة فيما بعد، في تلك اللحظات التي مرت بي وقد تجمعت علي قسوة الدنيا، وعجز الكلام، وتساوت كل الأشياء في نظري دفعة واحدة.

وجاء الليل البهيم الحالك إلا من النيران التي أشعلها الناس للتدفئة أو لطبخ الطعام لدى البعض، ومرة أخرى كانت هجرتنا تشكل المادة الإعلامية الدسمة في صدر نشرات الأخبار، وزاد الاهتمام تلك الليلة عن الليلة التي سبقتها، كل إذاعات العالم، عدا إذاعة بغداد. وكانت تلك الأخبار والنداءات الدولية تدخل الفرح في نفوسنا فقد أصبحنا جميعاً أصحاب قضية إنسانية أخذت تطرق أبواب المجتمع الإنساني بقوة وأوصلت كلمة (كورد) إلى كل شبر في الأرض، ومع ذلك الشعور كانت بطوننا يعصرها الجوع، وأجسادنا ضعيفة لقلة النوم والبرد والظروف الصحية والنفسية، التي أصبحت لا تطاق، وكانت فكرة الصمود لحظتها بلا معنى، فارغة من كل مضمون.

وجاءت السماء لتشارك في عرسنا، فقد بدأ صوت البرق يصم الآذان، ثم بدأ المطر بالهطول بغزارة. فتخلينا عن النار وعن الحديث وروح الدعاية، وطرحنا فكرة المعنويات العالية والشجاعة جانباً، وتكورنا تحت البطانيتين، وهما تسمعانا ألحاناً موسيقية لم تألفها الأذن، وقطرات المطر الثقيلة تضرب وجههما بشكل مخيف، موسيقى عنيفة لم يدركها (بتهوفن) في سيمفونياته كلها. وكان البرد شديداً، فطلبت من سميرة أن تغطي الطفلين بالبطانية الأخيرة المتبقية بشكل حر.

استمر هطول المطر دون انقطاع ولم تخف شدته، كانت ليلة لا توصف، وأستمر الحال طوال تلك الليلة، وعندما بدأت نرمين تصارع سلطان النوم أسندت رأسها إلى صدري وطلبت منها أن تحاول النوم، كذلك فعل فهمي مع صالح، وكانت تارا جالسة قرب أختها، وأخذ رأسها الجميل يميل إلى الأمام تارة لكن سرعان ما تستيقظ فترفعه مرة أخرى وهكذا.

ثم أخذ المطر يتجمع في البطانيات، فنقوم بنفضها وكان ذلك يعني أن يخرج أحدنا إلى خارج حدود البطانيتين اللتين تؤلفان سقفاً مائلاً، فيتعرض للمطر لذلك تبرع فهمي وعمر القيام بذلك لأنهما يرتديان قمصلات عسكرية سميكة تقاوم المطر أكثر من تلك التي كنت أرتديها. في تلك الليلة العصبية لم يغمض لنا جفن. وتحول القلق إلى خوف شديد من أن يسقط أي واحد منا في أية لحظة بسبب عدم النوم لمدة طويلة والجوع الذي لم نعد نحتمله.

وجاء صباح اليوم التالي، وكان المطر لم يزل يهطل بغزارة وتحولت مرافق القرية إلى أطيان وأوحال لا يفكر المرء أن يتنقل عبرها، كان طوفاناً يشل الحركة ويجبرنا على البقاء في المكان الذي تم اختياره من قبل كل فئة من الناس. وما زاد من قلقنا ذلك الصباح حالة صالح الصحية، فقد كان مستلقياً على ظهره أكثر الأوقات، وكذلك يوخنا الصغير حيث تطورت حالة الإسهال لديه إلى (ديزان تري) حاد مصحوب بالدم، وكان كل ما نستطيع أن نفعله هو نفخ البطانيات والتخلص من الماء الذي يتجمع فيها باستمرار، وتسقط قطرات على أجسادنا، وأصبحت تلك القطرات

كثيرة، وتزداد مع الوقت، والشيء الآخر كان حالة الانتظار التي أصبحت مملة ودون هدف.

كان ذلك اليوم من الأيام التي لن ننساها نحن جميعاً الذين نؤلف ذلك القطيع البشري الراضل لفكرة الاستعباد الذي تخلى عن كل شيء طمعاً في أن تستمر حياته وأن لا يقع في يد أزام السلطة الذين تعلموا الكره والبطش والظلم والقتل الجماعي. فقد سلبتنا الأطيان أحذيتنا، إضافة إلى حالة الترحلق والتدحرج التي قلما سلم أحد منها إذا حاول التنقل من هنا إلى هناك. ورغم ذلك بدا جمعنا أكثر هياجاً وقد نفذ صبره، وكان يمكن ملاحظة ذلك بسهولة من تحرك الناس وصيحاتهم الراضية، ذلك ما لمسناه أنا وفهمي وعمر عندما قمنا بجولة قصيرة في أزقة القرية، التي رأينا ولأول مرة خروج البعض من سكانها من بيوتهم لقضاء أعمالهم وحاجاتهم الضرورية وكان البعض منهم يتحدث إلى المهاجرين، وسمعت أن البعض منهم قدم لبعض التجمعات مساعدات غذائية وإن كانت قليلة، سيما بعد أن أدخلنا الطمأنينة إلى قلوبهم ووجدوا أن هذا الجمع رغم المظاهر الوحشية التي بدت عليه عندما دخل القرية، أناس مسالمون، هربوا من الموت الجماعي الذي كان ينتظرهم.

وفي ذلك اليوم أيضاً وصلت طائرة مروحية ألمانية تحمل الصحفيين الذين أجروا لقاء مع القائم مقام الذي ننتظر وصوله في أية لحظة، يحمل التعليمات والصلاحيات اللازمة مخولاً من قبل السلطة التركية، وكان ذلك كافياً لجعل الناس أكثر هدوء، وتخليناً عن مخاوف الموت جوعاً، رغم أننا لم يكن في تصورنا لحظتها طبيعة النجدة التي سوف يأتي بها المسؤول التركي بسبب من مركزه الإداري المتواضع. ومع توقف الأمطار بعد أن

هدأت بصورة تدريجية، زادت تحركات الناس، وكثرت الزيارات بين المجموعات للاطمئنان على بعضهم البعض.

عدنا إلى مخيمنا وكان بقية مجموعتنا قد علمت بالأخبار الجديدة وجملة من الأخبار الأخرى التي تخص قضيتنا تناقلها الناس فيما بينهم بسرعة، وكان قد سمعها البعض من الإذاعات العالمية المختلفة؛ لذلك كانت معنوياتهم أفضل بكثير، وعندما تقربنا منهم قالت تارا:

- هل سمعتم بالأخبار الجديدة؟

فقال عمر:

- نعم سمعنا

وقالت نرمين:

- ومتى يهتمون بنا؟ لا نرى لأحد أثراً

فقال فهمي:

- ربما مجرد كلام

فقال صالح:

- لا أظن أن هناك أحد يهتم بنا وتقدم العون لنا.

فقلت معلقاً:

- أظن أن هناك اهتمام جدي بمصيرنا، من اللهجات الإعلامية

المكثفة، وهذا توقيت سياسي مقصود، مقارنة بعمليات الأنفال عام

1988، إذ لم يتحرك المجتمع الدولي بشكل جدي، وتجاهلتها أكثر الدول وأظن أننا سنحظى هذه المرة باهتمام أفضل، ولكن متى وكيف، لا أعرف ذلك على وجه التحديد.

وجرى الاطمئنان على صحة الولدين، لقد كانا بحالة سيئة، إلا أن حالتهم لم تكن على درجة كبيرة من الخطورة، لذلك قلت لسميرة: لا تخافي على ولديك فإن حالتهم عادية، وستصلنا المساعدات قريب.

وكانت تارا جالسة، تقربت مني عندما كنت أضع راحة يدي على جبهة الأطفال للاطمئنان على درجة حرارة جسميهما، وكنت أشعر بأنفاسها الحارة، وأنا أنظر إلى وجهها الذي بدأت أحبه وتحولت بحمل حركاتها إلى ما يشبه اللعبة، أخذت تجذبني شيئاً فشيئاً وقلت لها: وكيف أحوال الأستاذة؟ هل أنت صامدة؟

فابتسمت مطرقة رأسها، ثم رفعتة فكانت عيناها تبتسمان تلك الابتسامة الساحرة وأحمر وجهها بشكل ملحوظ، وقالت: أنا بخير يجب أن تتحمل وضعنا، تلك إرادة الله.

— هل زاركم صباح؟

ولا أدري كيف خطر ببالي أن أسألها ذلك، فشعرت بالإحراج، وكان علي أن لا أطرح عليها ذلك السؤال، فقالت مبتسمة:

— كلا لم يزرنا أحد، وبعد أن صمتت للحظات مطرقة رأسها، أضافت وفي عينيها ابتسامة وتحدي وشيء آخر أخذ يبدو ولأول مرة، كان شيئاً أقرب إلى الإعجاب المستر بإتقان وعن قصد واضح:

- اطمئن!

وأدخلت الاطمئنان إلى نفسي فعلاً، وأشعرتني بجملة مشاعر جديدة نمت تلك اللحظة، وكانت لذيذة للغاية، بحيث أنستني التعب والجوع، وشعوري بالمسؤولية، وزرعت في رأسي فكرة أن يظل الإنسان إنساناً مهما كانت المواقف والظروف المحيطة به.

عندما حل مساء ذلك اليوم تبددت معنوياتنا العالية عندما لم تظهر في الأفق أية بادرة لمساعدتنا وإنقاذنا من المحنة التي كنا فيها، ورجع الناس إلى التذمر وندب سوء الحظ. وفي ذلك الوقت قالت سميرة أنها وجدت غرفة صغيرة فارغة قرب أحد البيوت القريبة من مخيمنا الخاص، ودعتنا لقضاء الليل فيها، فهي أفضل في تصورها من البقاء في العراء وتحت رحمة المطر.

وعلى أثر ذلك ذهبنا أنا وفهمي إلى هناك، فوجدنا هبة من السماء، واستغربنا كيف أن أحداً لم يلجأ إليها قبلنا. وكانت غرفة مبنية من الخشب وفي وسطها موقد لإشعال النار، وعلى بعد عدة أمتار منها توجد حنفية للماء، وعلى الفور رجعنا إلى بقية أفراد مجموعتنا وتم جمع أمتعتنا وهرعنا إلى هناك.

وفي الطريق انزلت قدم تارا ونخلع حذاءها حيث أمسكتها الأطيان، وكان عمر قريباً منها فأمسكها من كتفها وأنقذها من السقوط كلياً في الأوحال السميكة، وكانت أحذيتنا قد تحولت إلى كتلة طين أحمر ثقيل الوزن يمكن تسميتها بأي شيء آخر غير الحذاء!. واكتشفنا بعد أن أصبحنا جميعاً داخل الفرقة غير مصدقين أنها زريبة حيوانات تركها أهلها لكثرة وجود القمل والبراغيث والناموس، غير أن ذلك الاكتشاف لم يكن

ليجعلنا نتخلى عنها، عندما تذكرنا الليلة السابقة التي كنا نصارع البرد والتعب ومياه الأمطار والنوم، بحيث لم يعترض أحد على عدم استخدامها. وقبل غروب الشمس، أشعلنا الموقد الذي كان فيها، ولأول مرة شعرنا بالدفء بعد عدة ليالي قضيناها في ظروف جوية قاسية لا يحتملها المرء لأي سبب سوى من أجل البقاء حياً.

وغسلنا وجوهنا وأيدينا والجوارب وأرجلنا وقمنا بتجفيف البطانيات المبللة والرطبة ونظفنا أحذيتنا من الطين ثم وضعناها قرب النار لتجف. وهكذا جلسنا جميعاً حول النار ونحن نتعاون بشكل دؤوب لتجفيف كل ما هو مبلل ورطب، ونسينا الجوع بعض الوقت، غير أن أجسامنا كانت ضعيفة بشكل خطير وشعرنا بعدم الرغبة في الكلام الكثير، وحاول فهمي أن يتصيد بعض الأخبار، من خلال جهازه الصغير ولكن البطاريات كانت ضعيفة، ومع ذلك فقد استمعنا إلى عدة إذاعات عالمية كانت هجرتنا قد تصدرت نشرات الأخبار، واستنتجنا أن هناك عدة دول ومنظمات دولية رسمية وغير رسمية قد بدأت فعلاً التوجه لنجدتنا، وكانت تلك الأخبار انعطافاً يخدم وضعنا والقضية التي أصبحنا عملياً جزءاً خطيراً ومهماً منها.

لم يمتد بنا السهر طويلاً، فبعد أن جففنا كل شيء أمام تلك النار، شعرنا بالنعاس، ففرشنا البطانيات ونمنا على نفس الترتيب السابق، ولأول مرة نمنا نوماً عميقاً، رغم أنه كان متقطعاً بسبب ما أسماهم عمر في صباح اليوم التالي (بزوار الليل) ويقصد تلك الحشرات الصغيرة التي لم تكن لتشكل عائقاً أمام إعياءنا الجماعي ورغبتنا وحاجتنا إلى النوم.

في صباح اليوم التالي نهضت من النوم حوالي الساعة الثامنة وكنت أشعر براحة جسدية لأول مرة بعد أيام وليالي دون نوم عميق، وكان الكل نياماً، كل على طريقته، فصالح يغط في نوم عميق ويصدر شخيراً بصوت عال، أما فهمي فكان هادئاً على جنبه الأيمن وقد تكور جسمه على بعضه البعض، وامتد بصري إلى تارا التي كانت تسبح في نوم عميق، كملاك أبيض، وبشرتها البيضاء صافية، فامتلاً وجهها بالبراءة؛ فحفق قلبي لحظتها وتمنيت أن اجلس قرب رأسها وأداعب شعرها الجميل الذي لا يفقد ترتيبه في كل الظروف، وأن أمسح وجهها براحة يدي وأهزها بلطف، وبعد أن تستيقظ تلتقي العيون، فأبتسم لها بأدب جم قائلاً:

- صباح الخير أيها الملاك الطاهر

ولكن تلك الرغبة البسيطة لا يمكن تحقيقها أيضاً.

أيقظت فهمي وعمر الذي كان في نومه طفلاً صغيراً ليس له ذنب، ثم نرمين التي جلست بصعوبة وقالت:

- صباح الخير شفان ، انني بحاجة إلى مزيد من النوم، ثم أضافت:

- ولماذا نستيقظ؟ ليس وراءنا شيء، لا عمل ولا إعداد طعام.

فطلبت منها أن تتولى مهمة إيقاظ سميرة وتارا.

وسمعت أثناء ذلك أصواتاً كثيرة وحركة في الخارج، وعندما خرجت من الغرفة، وجدت الناس تلملم حاجياتها، وتتجه خارج القرية، نحو الطريق الترابي حيث كانت تقف تلك الدبابة التي منعنا من التقدم داخل تركيا. ولما سألت بعض المارة، قال أحدهم:

- لقد تم فتح الطريق إلى (جهلي)، ووصل القائم مقام قبل قليل،

فعدت بسرعة إلى الغرفة، وكان قد عاد الجميع مستلقياً على الفراش، فقلت بصوت عال:

- ما هذا؟ ألا تودون تناول الطعام وشراء ما يلزمكم من المواد؟

فقال عمر:

- إن خيالك الواسع لن ينفعنا هنا أيها الرئيس

وقال فهمي:

- ألم تتعب من الإصرار على التشبث بالأحلام أربعين عاماً؟

وقالت نرمين:

- ما هذا الذي تقولانه؟ أنا لا أرضى أن تتكلموا مع شفان بهذا

الأسلوب في حضوري، ثم مدت يدها من فوق جسد تارا وأخذت تهز سميرة بعنف قائلة:

- هيا أيتها الكسولة اجلسي ورتبي طفليك، كفاك نوماً

وسمعت تارا تقول، وكانت مستلقية على ظهرها:

- ما قصة الطعام يا أستاذ؟ هل وفقت في الحصول على شيء منه؟

- كلا، ولكن الطريق إلى جهنم قد فتح أمام الجمهور ووصل القائم

مقام، ويتجه الناس نحو الطريق الترابي الذي يلتف حول القرية

فقال الجميع وبصوت واحد:

- أرجو أن لا يكون ذلك مزاحاً

- لا والله، أخرجوا لتروا بأنفسكم، لقد تحرك الناس فعلاً، وعلينا

ترتيب حاجاتنا بسرعة لكي لا نتأخر عن القوم.

وثب فهمي وعمر وصالح على أقدامهم وخرجوا من الغرفة وتبعتهم

نرمين وتارا، ثم عادوا وهم فرحون لأول مرة بعد أيام عديدة كانت

وجوهنا تسبح في هم ويأس عميقين. وأمتد يدي إلى أول بطانية لأطويها

وأجعلها على شكل اسطوانة رفيعة وقصيرة، ثم ربطتها بالحبل ووضعت

الحبل حول رقبتى وكتفي الأيمن، ولم يمض غير وقت قصير حتى كنا على

أهبة الاستعداد للحركة. كان الأطفال شديدي الضعف ومن بعدهم صالح، أما نحن البقية فقد شحذ الخبر الجديد هممنا، ولكنني عندما تحركت بضع خطوات إلى الأمام دارت الأشياء حولي، ولم أستطع الوقوف وشعرت بعرق بارد يتصبب من جبيني، وبتسارع في ضربات القلب، فركض عمر وفهمي ناحيتي، ثم صاحت نرمين:

- لقد وقع شفان

استطعت الوقوف بصعوبة، وطلبت بعض الملح وشيئاً من الماء، وقلت لهم:

- لا تخشوا شيئاً انه هبوط الضغط الذي يحدث لي طيلة حياتي، فاطمأن الجميع.

تناولت قليلاً من الملح وشربت بعض الماء، وقلت لهم:

- سوف أحسن بعد قليل، هيا لنذهب

أصبحنا خارج الفرفة، ووجدنا الناس يتحركون نحو الطريق الترابي كأفواج النمل الأسود وقد نسوا أو تغلبوا على جوعهم وضعفهم وآلامهم وأمراضهم. كانت الشمس ساطعة ولأول مرة بعد أيام وليالي قائمة وكثيية لن نستطيع محوها من ذاكرتنا أبداً. وكان شعورنا بالجوع شديداً، فبعد أن نمنا نوماً عميقاً وطويلاً نسيباً تلك الليلة، تركز همنا على بطوننا الفارغة، وتمنينا أن تسعفنا أية جهة بأي شيء نأكله وبأسرع وقت.

تحركنا مع الجموع الغفيرة على الطريق الترابي، ذلك الصباح المشمس الجميل، وسط الجبال إلى هدف آخر مجهول، لا نعرف ماذا ستفعل بنا

السلطات التركية. وكان ذلك الصباح السابع من نيسان، حيث كانت السلطة في بغداد تستعد للاحتفال بمناسبة تأسيس الحزب الحاكم.

استمر سيرنا فوق ذلك الطريق الترابي المليء بالأوحال، والغريب أيضاً أن جمعنا الذي فقد قوته بسبب الظروف التي عاشها الأيام السابقة كان يتسارع في سيره، بل الأصح كان أقرب الى التسابق، وعادت أحذيتنا يزداد وزنها كلما تقدمنا الى الأمام، بسبب ما يتعلق بها من الأطيان. ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن طبيعة هدفنا، كل ما سمعناه من الناس أن السلطات التركية وعلى لسان القائم مقام قد رحبت بجمعنا وطلب منهم عدم الخوف والالتزام بالنظام والابتعاد عن الفوضى، ثم طلب منهم السير على الطريق الترابي حيث قادتنا مجموعة من الجنود، ذلك ما سمعناه من الناس الذين حولنا، لأن مقدمة القافلة كانت بعيدة عنا، وعندما حانت مني التفاتة إلى الوراء بعد أن قطعنا مسافة لا بأس بها لم أستطع أن أرى مؤخرة القافلة، كنا قطعاً بشرياً كثير العدد، ولا أحد يعرف عددنا بالضبط، ولكنني قدرتهم بأكثر من مائة ألف إنسان.

كان يونا ضعيفاً لا يقوى على السير بمعدل سرعتنا فحملته أمه على ظهرها، وعندما كانت تتعب تساعدنا تارا في حمله، وأقلقنا ذلك لأننا لم نكن نعرف أية مسافة سنقطعها مشياً على الأقدام، ونحن بذلك الضعف البدني بسبب الجوع، كان أغلبنا يبدو مثل شيخ ذابل السحنات داخل ملابسه السميكه، ولكننا عندما تفحصنا الكثير من الناس حولنا، وجدنا أنفسنا ضمن أحسن الأفراد كفاءة وصحة، فقد كان عدد المرضى من الأطفال مخيفاً، وأكثر الأمراض كان الإسهال ثم الأنفلونزا والتهاب القصبات الهوائية، إضافة إلى ما سببه نقص الطعام من ضعف ووهن

وإعياء. أما الحالات الأخرى فكانت مشكلة الشيوخ والنساء الحوامل، وعندما عرضنا على تارا وسميرة أن نساعدهما في حمل الطفل يوحنا رفضتا بإصرار وكانتا تسيران أمامنا ومن خلفهما نرمين ومن ثم نحن الأخوة الأربعة، وقال فهمي هامساً في أذني:

- دعهما يا شفان لتتحملا مسؤولياتهما

وأخيراً وصلنا إلى واد عميق قبيل الظهر بقليل، مشيد عليه جسر خشبي ضيق نسبياً، وقربه نقطة عسكرية فيها ضباط وجنود أترك رجوا بنا، وكانوا في حركة دائمة لتنظيم عبور الناس. وعلى الضفة الأخرى من الوادي كانت تقف سيارات شحن بأعداد كبيرة، وطلبوا منا أن نصعد إليها بواقع كل سيارة لعشرين شخصاً، فأزدحم الناس في صناديقها، وكان منظرًا فريداً لم نألفه، وتراصت الأجساد التي أنفكها الجوع ولم يكن مسموحاً أن يجلس إلا للأطفال الصغار والشيوخ والعجزة. وقال لنا شيخ في السبعين من عمره كان هزيل الجسم، تعباً:

- إلى أين يأخذوننا؟

فقال أحد الشبان معلقاً ساخرًا:

- إلى الجنة يا جدي! ماذا أتى بك إلى هنا؟، لماذا لم تمكث في بيتك؟

تحركت السيارات على طريق ترابي كثير الحفر والطين والبرك المائية، فكنا نتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ونصطدم ببعضنا، أو نقع، وبخاصة أولئك الذين يقفون بعيداً عن أسيجة صندوق السيارة، وكنا نقف قرب السياج الملاصق لقمارة الشاحنة فساعدنا ذلك على أن نكون

في وضع أفضل من الآخرين رغم إن أفراد السيارة قد فسحوا المجال للنساء والأطفال وكبار السن ليستندوا إلى الأسيجة أو الجلوس على أرضية السيارة وكانت تارا واقفة شائخة بوجهها الجميل وشعرها الذي يؤلف لوحده أنغاماً شجية وهو يتحرك بفعل الرياح، حيث لم تغطي ذلك اليوم رأسها بل دعت خصلات شعرها حرة وسط تلك الجبال الوعرة في أرض لم نشعر فيها بالغربة لأنها كانت ولم تزل جزءاً من أرض كردستان الواسعة.

استقبلنا الشعب الكوردي هناك بالترحاب في القرى التي مرت قافلنا بها وقدموا لنا الطعام والماء، وكان الطعام معبأً في أكياس، تحتوي علبصمون وبيض. ورغم قلته إلا أنه أسعف بعض الأنفس البشرية التي باتت على حافة الهلاك من شدة الجوع. وكان كلما مررنا بقرية نجد أهلها قد خرجوا عن بكرة أبيهم يلوحون لنا بأيديهم، ويتمنون لنا النجاة والتوفيق والقوة. وتم تزويدنا من السيارات التركية التي كنا نمر بها بعبوات من المياه المعدنية والجبن والزيتون وثلاث عبوات من المياه المعدنية المعبأة في قناني بلاستيكية رقيقة. كانت السيارات تسير ببطء لوعورة الطريق ومراعاة لحمولتها حيث كان الناس يقفون على أقدامهم. تناول ذلك الجمع المهاجر طعامهم في تلك الظروف الخاصة والصعبة، ورغم قلته ونوعيته إلا أنه كان كافياً، وربما من أشهى ما تناولناه، لأننا كنا على وشك أن ننهار جوعاً. لم يعرف أحد منا بعد أين تسير بنا تلك السيارات الكثيرة، رغم أن بعض الناس من حولنا من السيارة التي كنا على ظهرها تفاءلوا بأن نخط الرحال في مخيمات أعدت لنا خصيصاً، وهناك نجد المأوى والطعام والكساء والرعاية الصحية، غير أن كل ما كان يحيط بوضعنا ذلك اليوم لم يكن يشجع على التفاؤل، ووضع نهاية

لآلامنا وإنقاذنا من برائن الموت الجماعي أو تفشي الأمراض على أقل تقدير.

ركن من كان معي إلى السكون، فكل واحد منا مشغول بتثبيت جسمه لتفادي السقوط أو الاصطدام بمن يقفون قربه، وكل واحد منا يفكر بنفسه بطريقته الخاصة، فلا بد أن فهمي كان يفكر بحظه العاثر، وبزوجته التي تركها في دھوك ولم يمض على زواجهما سوى خمسة أشهر. وعمر الذي لا زال أعزباً، ولا بد أن رأسه مليء بالأحلام العريضة التي يسرقها الزمن وظروف البلد الشاذة التي تقضي بالموت على كل فكرة وحلم وبسمة.

أما نرmin فلا بد أنها تفكر بالوالدين أولاً ثم بمستقبلها، إذ لم يبق من دراستها سوى ثلاثة أشهر لتنال شهادة الهندسة. وكان صالح غامضاً تلك اللحظة بالنسبة لي، فقد كان هادئاً كل الهدوء ورغم ضعف جسمه كان نبيلاً لم يطرح ابتسامته جانباً. وكانت سميرة أكثرنا خروجاً عن وقارها، فلا تكف عن السؤال عن وجهتنا وماذا سيحل بنا، وتلوم الحظ والبنخت والمطر. وكان طفلاها يفترشان أرضية السيارة، الصغير يقضم قطعة من الصمون كانت لا زالت في يده وأمه تحثه على أن يأكل، وهو يرفض بحجة عدم الاشتناء للطعام. وعندما نظرت إلى تارا، خفق قلبي، ونسيت الهجرة والموت، فكأنني انتقلت إلى بيئة أخرى تخلو من القتل والخوف والهرب، وبدت تارا وحيدة في عالمها المتوازن، صامدة لا يبدو عليها الضعف، كانت تقف شائخة وقد رفعت رأسها تنظر إلى المناظر الطبيعية الساحرة التي نمر بها في سيرنا ذلك اليوم، لعلها كانت تفكر بالاستقرار، بزواج يحنو عليها ويحترمها ويقدر مزاياها، ولأول مرة شعرت

براحة نفسية لوجودها قريبة مني، وأدركت أيضاً أن ذلك الشعور هو ما يبحث عنه أي إنسان بوعي تام أو حتى بغير وعي.

وتحولت كتل الصخور حولنا إلى أشكال شفافة، وتحول الجمع المهاجر إلى فرقة كورال مميزة، أخذت تنشد تلك الأنغام التي تجبر المرء على الصمت والتأمل والنقاء. وكانت خصلات شعرها من أجمل الأشياء لحظتها، وهي تتحرك بهدوء لكل نسمة هواء، أو لكل حركة عمودية للسيارة، وكان جسمها ذو المواصفات العادية يبدو جميلاً في رشاقتها ومتانتها وخفتها، وهدوئها. ووسط تلك الخواطر عدت إلى نفسي فوجدتني خسرت عمري ولم أحقق شيئاً رغم الأبواب العديدة التي دخلتها ورغم اهتماماتي العديدة التي أمارسها، ولكنني في كل مرة أعود إلى الظروف التي تحيط بنا منذ أكثر من عشرين سنة، فألقي اللوم على الواقع الذي لم نختره، ولم يخطر ببالنا أن نكون إنساناً دون قضية، ولن أساوم يوماً على بقائي نقياً، ولن أتخلى عن إخلاصي في كل ما أمارسه، حيث كان الصدق منهجي ولم أدرس خبرتي أمام أي إغراء مادي أو معنوي.

استمر سيرنا الممل ونحن قد حشرنا داخل تلك الصناديق الحديدية القاسية، وقسم من السيارات كانت تفتقر إلى البوابة الخلفية مما كان يشكل خطراً على الناس مع أن بعض الشباب ومن باب الافتقار إلى التسلية وإثبات الذات كانوا يجلسون على حافة الصندوق وظهورهم باتجاه مقدمة السيارة وقد تدلت أرجلهم، وتهتز أو يهزونها هم، ولم يتخلوا عن دعاياتهم وتهكمهم على بعضهم البعض، أو ينقسمون إلى مجموعتين ويتراشقون السخریات وتقليل الشأن.

في المغرب من ذلك اليوم التعيس وصلنا إلى واد عميق تحيط به فصح مناسبة تكونت بفعل عمليات التعرية، وكانت أقرب إلى سهول فيضية ضيقة ومحدودة أو المصاطب النهرية بفعل الفيضانات الكونية. يصب في الوادي الرئيسي واد ضيق القعر واسع الجانبين قرب المساحة المستوية وعلى جانبي الوادي الفرعي حائطان عاليان يتكونان من طبقات صلبة وداكنة من الصخور الكلسية، وبعدها باتجاه الوادي الفرعي (باتجاه الجنوب) هناك منحدران قاسيان على جانبي الوادي، منحدران طويلان ولكن يمكن تسلقه بسهولة لأنه يتكون من صخور رخوة نسبياً.

وهكذا، وقبل حلول الظلام أفرغت تلك السيارات الكثيرة حملتها في جوف الوادي المهجور وعادت أدراجها. وقامت السلطات التركية بتحذير الناس من القمم المتصلة التي تغلف الوادي الفرعي على شكل نصف دائرة وعدم التقرب منها لأنها حقول ألغام كثيفة، وأستمر تدفق السيارات إلى ما بعد حلول الظلام. وهكذا رمتنا السلطات التركية في منطقة وعرة ومهجورة وسط حقول الألغام بدل أن تزجنا في أي مخيم يلي أبسط متطلبات اللاجئين.

وقام الجنود الأتراك بتخصيص مكان لكل عائلة أو مجموعة عائلات، وتم تحذيرنا من وجود الألغام بالإشارات، رغم أن جمعنا كان فيه العديد ممن يعرفون بعض الكلمات التركية، ويضع أشخاص كان باستطاعتهم التفاهم معهم ومنهم أنا، ولكن لا أدري لماذا لم تكن لنا الرغبة في الكلام، ربما كان الخوف الأزلي الموروث الذي نتعرض له باستمرار، وذلك الرعب الذي زرعه السلطات التي كانت دائماً غريبة عنا وتستهدف إخضاعنا وفرض إرادتها الخاصة، وتأريخها الخاص ولغاتها

وثقافتها الخاصة. كانت الأرض موحلة بسبب الأمطار، وعادت كتل الغيوم الضخمة الرمادية السوداء لتملأ السماء، وأخذت تلتحم مع بعضها البعض، وكان الذين أسعفهم الحظ ووصلوا قبل هبوط الظلام قد انتشروا لجمع الحطب كما فعلنا نحن، فبعد أن تبين لنا أن ذلك الوادي هو محطتنا ونحابت آمالنا وإنصب تفكيرنا على مجرد البقاء على قيد الحياة، لذلك تم جمع كمية وافرة من الأخشاب من قيل فهمي وعمر وصالح. وأشتد البرد من جديد وازدادت شدته كلما توغلنا في جوف الليل، وكان منظر الناس مؤلماً، وحزيناً ومستسلماً للأقدار، مسلوبي الإرادة والراحة والاستقرار.

تجمع أكثر الناس في الفسحة الواسعة قرب مجرى الوادي الرئيسي، وأشعلوا نيراناً عظيمة للإنارة والتدفئة الجماعية، وظهرت مئات النيران المشتعلة هنا وهناك وتنمو باستمرار ويزداد عددها، فكان منظرأ فريداً من نوعه، يعبر عن بؤسنا وحالة الجوع التي أخذت تفعل فعلها في أجسادنا. وكانت رائحة أجساد بعض من نقابلهم أو نمر بهم لا تطاق وبخاصة الرائحة التي كانت تنبعث عندما يتخلصون من أحذيتهم طلباً للراحة، أولئك الذين أهملوا النظافة قرابة أسبوع كامل.

جلسنا حول النار التي أشعلها عمر وطلب منا أن نحمي أنفسنا من البرد، وفرشت سميرة بطانية ليتدد عليها ابنها يوخنا وفرشنا اثنتين أخريين كل مطوية مرة واحدة طويلاً لنجلس عليها. كانت معنوياتنا قد بدأت بالهبوط من جديد بسبب الصدمة في زجنا في ذلك المكان المقفر، ولم يعرف أحد أين يقع مخيمنا الجديد، ولماذا تصر الأقدار على أن نهزم كل مرة؟.

وقال عمر بعد أن جلس وأشعل لفافة تبغ عصرها بين أصابعه عدة مرات قبل أن يشعلها ويسحب لنفسه عدة أنفاس:

- أخوان لماذا القلق؟ ربما نمثل فلماً تراجيدياً اجتماعياً، نحن (كومبارس) فقط

وقالت نرمين:

- إنها حقارة

ولعن صالح السلطات التركية

وقال فهمي:

- أين الاهتمام الدولي ودعاة حقوق الإنسان؟

وقالت سميرة بألم واضح:

- ربما جمعونا هنا قرب حقول الألغام ليقضوا علينا بشكل جماعي بالتعاون مع السلطات العراقية

وعلقت أنا قائلاً:

- وهذا المكان النائي يصلح أن يكون مقبرة جماعية عظيمة، يتم فيها التخلص من عدد هائل من الأكراد.

وقالت نرمين بمرارة:

- هل هذا معقول؟. ثم أضافت قائلة:

- لماذا لا تسأل أحد الضباط، أنت تتكلم بعض التركية، أليس كذلك يا شفان؟

- نعم، ولكن أظن أن ذلك لا يجدي، لأنهم أيضاً لا يعرفون شيئاً، فقد صدرت لهم الأوامر من رؤسائهم ليتم نقلنا إلى هذا المكان فقط، ثم وقفوا قرب الوادي لمراقبتنا ومنعنا من التشتت وربما الهرب إلى أي مكان آخر.

وقال فهمي معلقاً:

- ربما هذا صحيح، فما دمنا في أرضهم نكون فقدنا حريتنا وزمام أمورنا، ولن نشارك في صنع أي قرار لاحق يخصنا

قامت تارا حاملة يوحنا لقضاء حاجته، فالإسهال يقض مضجعه، وحمدنا الله على أنه كان طوال الطريق طبيعياً دون أن يربكنا أو يخرجنا، حيث لم نكن في وضع يسمح بأن يقضي حاجته إلا في حوض السيارة نفسها.

أشتد البرد أيضاً وزادت سرعة الرياح، وسمعنا عن توجه بعض المنظمات والحكومات لنجدتنا بشكل عاجل، وكثر الكلام والتعليقات في الإذاعات العالمية كافة، وأصبح وضعنا يشكل في نظرهم مأساة إنسانية حرجة، امتدت بعض التعليقات لتتناول وضع الأكراد التاريخي والحركة الكردية في العراق، وموقف السلطات العراقية منها، وكثر الكلام ولأول مرة عن عمليات الأنفال البشعة التي نفذتها سلطات بغداد في الأكراد في خريف عام 1988، وإحصائيات بعدد الضحايا وعن مجزرة (حلبجة) والأسلحة الكيميائية، وهكذا كان العالم بأسره مشغولاً بنا وبمحتنتنا وبقضيتنا السياسية، ولكن ذلك كله، رغم أنه يشكل انعطافاً مهماً في نظرة بعض الدول ولأول مرة في تقييم وضعنا وإنصافنا، وكانت قبلها تصم آذانها عن تلك المجازر الدموية والإبادة المنظمة الشاملة

لجنسنا، أقول رغم تلك الضجة الإعلامية لم نر عملياً ثمرة ذلك الاهتمام  
وجدية ذلك التباكي على ضحايانا، ونحن نفترش وادياً مهجوراً في منطقة  
جبلية وعرة في شتاء بارد كثير المطر، رغم أننا كنا في منتصف فصل  
الربيع.

قال فهمي وقد ثارت ثائرتة:

- تبا لك أنت وأنت، وقصد دولتين كبيرتين، وأضاف:
- متى كنتم مع الشعوب لتقرر مصيرها؟، وتلك الشعوب ضحايا  
استعماركم وجشع أطماعكم منذ قرون من الزمن

أما أنا فقد كنت أحلم لحظتها بسماء صافية، تتدلى منها عناقيد  
ذهبية من النجوم، وبدر كثير الضوء، هادئ كهدوء جمال الكون، وعالم  
يخلو من القتل والظلم والحرب والدم والتعذيب والخوف والقسوة، عالم  
يملؤه الحب، كل واحد منا يحب لنفسه شيئاً، إذ بغير الحب لسنا بشراً،  
لأن في القدرة على حب الأشياء إبداع وقوة، وضحك كثير، وتشبث واع  
بالحياة، ويبدو العالم من حولنا جميلاً للغاية، ولسوء حظي كل مرة يتم  
إرجاعي إلى الواقع، فقد صحوت من أحلامي على صوت عمر وهو  
يمزحني:

- أنت أيها الرئيس فكر بحال رعيثك، إننا جياع، أين ذهبت؟، هذا  
مكان مناسب لندفن فيه أحلامنا جميعاً، وأوهامنا التي تربينا عليها وتم  
تلقيننا بصرامة، لقد آن الأوان أن نصحو وأن نرجع إلى الواقع لعلنا نفلح  
في إصلاح شأنه بعض الشيء. ثم أضاف قائلاً وبلهجة لم تفقد المزاح:
- أنتم الرؤساء لا تفكرون إلا بأنفسكم وتتركون شعوبكم تجتر  
تخلفها الزمن

## فضحك الجميع إلا تارا

بسبب فكرة الاعتماد على النفس في كل الظروف والتي طرحها اخوتي أكثر من مرة، وشددوا على ضرورة الالتزام بها من قبل الجميع، لم اقترح عليهم أية محاولة للحصول على بعض الطعام، فقد كان هناك بعض الجماعات لا زالت تحتكم على مواد غذائية حملوها معهم من كاذبي ماسي، ومنهم بعض أقاربنا، ومعارفنا، وفكرت أن أذهب وحدي لأطلب أي شيء يؤكل لنفسي عندما لم أستطع تحمل الجوع، وكنت أحلم بخروف نشويه أو حتى أرنب صغير أو قنفذ، وربما جرذ جبلي كبير الحجم!

وعندما وصلت ذلك الحد من التفكير قررت أن ألغي الفكرة من أساسها وأتذرع بالصبر، وعدت إلى رشدي تماماً، وبدأت أدخن وأمشي نافذ الصبر كثير التوتر، وحاولت أن أهرب إلى بطون خيالي الواسع، الذي أهرع إليه وإلى عالمه الساحر كلما ضاقت بي الدنيا، وأقنعت نفسي بأنني أفضل حالاً، بل لا بد أن أكون في أحسن حال مقارنة بالكثيرين، إن لم أكن أوفرهم حظاً أو جنوناً، وسألت نفسي:

– لماذا يجب أن أكون صبوراً وقوياً ومتفائلاً؟

ورحت أبحث عن أي سبب قوي مقنع، أو ميزة لها فعل السحر في الإنسان في الظروف القاتلة التي كنا فيها تلك الليلة الحمقاء الداكنة والباردة كثيراً، وبعد بحث طويل، استعرضت خلاله مواضيع شتى، مثل كوني أكبرهم، والثقافة والمهارات المتنوعة، وحيي للفنون والآداب، والمسؤولية، والخجل من الانهيار وبالتالي الخوف من الهزيمة والسقوط، لم

تكن كل تلك النقاط وغيرها جديدة ومقنعة بقدر كاف لتجعل المرء أقل ضرراً في تلك الأوضاع غير الطبيعية وأكثر تفاؤلاً بل متماسكاً، ضحوكاً ومحباً للحياة، وفي النهاية اقتنعت بشكل لا يدعو للشك أن وجود تارا معنا وافتتاني بشخصيتها، والإعجاب الذي بدأ ينمو سريعاً كل ساعة. وكلما كنت أنظر إلى وجهها أو أراقب حركاتها أشعر براحة كبيرة، أنسى معها الجوع والبرد ومصيرنا المهدد بالموت كل لحظة. إذا فقدت كانت تارا التي قلبت الموازين داخل نفسي، وجعلت قسوة الحياة أمراً طبيعياً ليس بمقدوره النيل من أحلامي، أو رغبتني في العمل بشكل أفضل، وتجعل من ذلك الحلم الذي كنت أبحث عنه طول العمر أمراً ممكناً مع قليل من الشجاعة وتجاهل الآخرين الذين نفعل الأشياء لإرضائهم عبثاً.

في تلك الليلة، لم يخلد الناس إلى النوم في وقت مبكر، ربما لأننا لم نبذل مجهوداً بدنياً شاقاً، أو ربما بسبب البرد، وأبقى الناس على النيران مشتعلة، رغم أن الساعة كانت قد تجاوزت التاسعة مساءً.

كان المكان يعج بالنور والضوء، فقد شكلت تلك النيران بقعاً من الضوء تداخلت وتجاورت مع بعضها، ولا بد أنها كانت من المناظر الفريدة لو قدر للمرء أن ينظر إليها من الجوا. وأخذ الشعور بالجوع يوقظ حواسنا، وبدأت تنمو في نفوسنا ما نسميه بالأزمة التي تظل قائمة لا تقبل أن تحل سلباً أو إيجاباً، فكان لا بد من السهر عندما لم نستطع اللجوء إلى النوم هرباً من الواقع، وأدركت لحظتها أننا جميعاً في حياتنا نلجأ إلى الطعام أو النوم أو القيام بعمل ما، أو تغيير المكان هرباً من الأزمات الصغيرة التي تنتابنا في حياتنا باستمرار.

تفحصت نرmin الغيوم في السماء ثم قالت:  
- أتمنى أن لا تمطر السماء؛ لتجف الأرض، فلقد أذاقتنا الأمطار ما  
يكفي من العذاب  
وقال صالح:

- لو كان معنا الآن (دسته) ورق لكنا نلهو قليلاً قبل أن يدركنا النوم  
فقال عمر مازحاً كعادته:

- لو كنت الآن ملكاً في أفريقيا، هكذا أجلس قرب النار وسط  
رجال قبيلتي ننتظر لحم الغزال الذي يتم شواءه على طريقة رعاة البقر في  
أمريكا، ثم نأكل اللحم على أنغام السامبا. واقترحت أنا أن نلعب لعبة  
فكرية (لعبة العشرين سؤال) ولكنني لم أجد الحماس لدى الآخرين.  
واقترح فهمي بعض الطرائف، فكان مصيرها كمصير اقتراحي. عندها قال  
عمر:

- لنرقص رقصة الهنود الحمر، نطوف حول النار على شكل حلقة  
نضرب الأرض بأقدامنا ونضع راحة يدينا على الفم نصدر تلك الأصوات  
المعروفة.

فضحكت نرmin وقالت معلقة:

- تصوروا لو اشترك كل الناس هنا معنا وفي وقت واحد، ماذا ستقول  
السلطات التركية عنا؟!

ف قالت تارا مازحة:

- ولكننا نحتاج عند ذاك الى مئات الطبول  
أصر قسم منا على أن يحتفظ بروح الدعابة بالرغم من ظروفنا، إلا أن  
مظاهر الألم وسط قافلتنا الفقيرة العدد أخذت تزداد بحيث لم تعد تشكل

قضية شخصية أو خاصة، فقد كان صراخ الأطفال الصغار يسمع هنا أو هناك، ومن بعيد أحياناً على شكل صدى.

وكانت عائلة صغيرة قد خيمت بالقرب منا، يقودها شاب قد تجاوز العشرين من عمره بقليل، ومعه أمه وزوجة شابة وطفلة عمرها ثلاث سنوات وابنة صغيرة لم تكمل العام الأول من عمرها، وكانت الصغيرة كثيرة البكاء، يشق صراخها سكون الجبل، ويرفض صراخها كل أشكال الظلم والقسوة. كان في ذلك اليوم في كل عائلة طفل صغير، أكثرهم قد أصيبوا بالأمراض قبل الكبار.

ومضى الليل ثقيلًا، وتم إعداد الفراش الجماعي، واقترحت تارا البحث عن أعواد خشب لعمل سقف فوقنا خوفاً من الأمطار، ولكن فهمي وعمر أجهضا اقتراحها وعلى الفور، حيث قال فهمي:

- أين نبحث عن الخشب المناسب في هذا الليل وسط حقول

الألغام؟

وقال عمر معلقاً:

- لنندع الأمر لله

وعندما تم الاستعداد للنوم على نفس المنوال السابق، بطانيتان تحتنا وثلاثة استعملت كغطاء، غطاء للطفلين، وغطاء للنساء والغطاء الأخير كان من نصيب (الأخوة كارامازوف) كما عبر عنا عمر كآخر دعاة أطلقها قبل أن ينتقل النوم به إلى عالم أهدأ وأقل قسوة. وكان لا يزال صوت الراديو يسمع من بعيد، يبحث أصحابها عن مخرج لأزماتهم بالسعي وراء النشرات الأخبارية في المحطات العالمية المختلفة، التي أصبحت بدورها ملة وفقدت الكثير من تأثيرها مقارنة بأول ليلة.

في صباح اليوم التالي استيقظنا من النوم مبكرين على صوت قطرات المطر الثقيلة وهي تضرب البطانيات التي فوق أجسادنا وتصدر صوتاً مميزاً أصبحنا نكرهه؛ لكثرة ما قاسيناه بسبب الأمطار، وأخذ يزداد قوة وغزارة وبسرعة.

فقلت تارا وهي على درجة من العصبية ونفاذ الصبر:

- والآن ماذا نفعل؟ يا الهي ارحمنا

كان المطر غزيراً ومفاجئاً، لذلك سادت بين الناس جميعاً فوضى وحيرة قصوى، فالأخاديد الصخرية والجحور قليلة وقد تم احتلالها من قبل بعض الناس، وكانت الأرض المنحدرة جرداء تماماً. كان الخيار الوحيد أمامنا جميعاً، هو الجلوس على الأرض وتغطية أنفسنا بالبطانيات، إلى أن ينقطع المطر أو تخف شدته، عند ذاك نفكر بطريقة أخرى لنحسن بها وضعنا. ولا حظنا تكوم الناس تحت الأغطية، ومن لا يملك غطاء احتوى بمعطفه أو سترته، وأخذ البعض يتجول دون هدف أو سبب، كان منظرهم لم نشاهده في أي فلم سينمائي، ولم نقرأ عنه في رواية، كان مشهداً حياً وواقعياً وتراجيدياً، يصلح أن يكون مشهداً رئيسياً في الفيلم الهندي المعروف (أم الهند) كما قلنا لبعضنا ونحن نحتبئ تحت البطانيات الخمسة، ورغم ذلك كان وضعنا أفضل نسبياً من الكثيرين ولكن بالطبع إلى حين. وتبادرت إلى سمعي أصوات استغاثة وصراخ الأطفال، ولعنات البعض الآخر الذين لعنوا الأبيض والأسود، الأخضر واليابس، ثم عادوا أخيراً ليلعنوا يوم مولدهم.

كنا نجلس القرفصاء ويتناوب قسم منا يمسك البطانيات بالأيدي ورفعها فوق رؤوسنا أو يدعوها تسقط على رؤوسهم عندما تتعب

الأيدي. وأثبتت تارا صبراً منقطع النظير، وكانت قوية ومتعاونة لم تنطق بكلمة يأس أو عتاب، وعندما أخذ الماء يجري من تحتنا، حاولنا البحث عن مجموعة صخور نجلس عليها لنحمي ملابسنا من الماء، وأذكر أننا أخذنا نشعر بالخوف وسط تلك العاصفة الصماء، وأخذت أجسادنا تهتز من شدة البرد في تلك اللحظات من ذلك الصباح الذي لن ننساه أبداً. لم يتبادر الطعام إلى ذهننا، فقد أنصب جهداً وتفكيرنا على أن تبقى أجسادنا وملابسنا جافة قدر الإمكان. وما أن خف المطر قليلاً حتى خرج فهمي وعمر من تحت البطانية محتملين بقمصليتهما العسكريتين السميكتين المزودتين بغطاء للرأس متصل بجسم القمصلة للبحث عن مكان مرتفع نسبياً، أو مجموعة صخور يرصونها، فقامت أنا وصالح وتارا وسميرة بحمل بطانية واحدة فوق رؤوسنا وأمرت الطفلين بلم باقي البطانيات لتبقى تحت حدود السقف الذي أنشأناه وتجنّبها مزيداً من الماء والطين معاً. وعندما عاد فهمي وعمر، حملاً الأمتعة، وطلبنا منا أن نقف ونرفع البطانية عالياً فوق رؤوسنا ونتحرك قليلاً باتجاه ارتفاع المنحدر، ودخلاً تحت الغطاء وأخذنا يساعداننا فيما أشار فهمي إلى ناحية تحركنا صوبها بسرعة حتى وصلنا مجموعة صخور متوسطة الحجم تم ترتيبها على عجل لنجلس عليها، ونكون بذلك قد تخلصنا من المياه التي أخذت تجري على الأرض على شكل سيل مخيف. وتمنينا لحظتها لو أمكن الحصول على مجموعة أوتاد خشبية طويلة لنقيم بواسطتها سقفاً مناسباً، فقد كلت أيدينا ونالها التعب، وزادها ضعفاً الجوع الذي لا يمكن تجاهله بين فترة وأخرى. ومما زاد من محتنا الأخبار الجديدة التي حملها فهمي وعمر معهما، إذ قال عمر:

– هل تعلمون أين نحن الآن يا جماعة؟

فدهشنا من السؤال، وقلت:

- نحن في تركيا بالطبع

فضحك فهمي وقال:

- نحن في العراق يا إخوان!

وقلنا بصوت واحد وبدهشة واضحة:

- في العراق! أيعقل هذا؟

فقال عمر:

- نعم، ولقد سمعنا من الناس أن السلطات التركية خدعتنا وأرجعتنا

إلى أرض الوطن، وتلك القمم (وأشار إلى ناحية الجنوب) مليئة بحقول

الغام كثيفة، زرعتها السلطات العراقية في وقت سابق.

فقلت سميرة:

- مستحيل

وأضاف عمر قائلاً:

- وهذه المنطقة تدعى (چه لي)

فقال صالح مستغرباً:

- ما معنى ذلك؟ هل هذا يعني أن السلطات التركية سلمتنا إلى

السلطات العراقية؟

وقال فهمي عند ذاك:

- وهذا المكان النائي كما قلنا يصلح أن يكون مقبرة جماعية لن يراها

ولن يسمع بها أحد

وقال عمر:

إن الناس مثلنا خائرون وكثيرو الخوف، وكل شيء محتمل

وقالت تارا:

- إن صح هذا الفرض، يكون عدم الاهتمام بنا لحد الآن جزء من  
مخطط مدروس بين الحكومتين التركية والعراقية  
وقالت نرمين:

- ماذا تقول يا شفان ؟ ألا تفكر أن تقودنا إلى النصر؟  
فقلت بعد أن رمقت تارا بنظرة سريعة، وكانت هي الأخرى تنتظر  
ردى:

- كل شيء محتمل. إن هذا الاحتمال قائم، فليست السلطات  
التركية أرحم على الأكراد من سلطات بغداد، ولكنني أرى أنهما لن  
تستطيعا ارتكاب مجزرة جماعية جديدة وبهذا الحجم، ويبدو أن انتشار  
خبر هجرتنا الجماعية واهتمام بعض الدول بشكل جدي، جعل من  
الحدث مأساة إنسانية بحته قبل أن تكون قضية سياسية داخلية؛ لذلك  
فقد سحب البساط من تحت أقدام الدولتين وأسقط الأمر في يديها، ولن  
تتجرأ الحكومتان على إلحاق الأذى بنا أو قتلنا وإبادتنا كما حدث في  
عمليات الأنفال.

وقالت نرمين:

- أين الاهتمام الدولي الذي يتحدثون عنه؟

فقلت:

- إن مثل تلك الإجراءات تتطلب وقتاً، ولا تنسوا أننا في منطقة  
وعرة ونائية، ووسط ظروف جوية قاسية إن لم تكن خطيرة للغاية.  
في ذلك اليوم العصيب، كانت كل مجموعة منعزلة عن الآخرين،  
ويتركز اهتمامها بحالتهم الشخصية، فالانتقال من مكان إلى آخر كان  
شبه مستحيل، كان مطراً غزيراً وقوياً، وتحولت الأرض إلى مستنقع من  
الماء والطين، وكان سيلاً رمادياً أحمرّاً على المنحدرات.

ورغم ذلك الوضع المتأزم الشاذ مضى الوقت، فالزمان لا ينتظر أحداً، وكانت تارا قريبة مني تحت البطانية ذلك اليوم، وكنت في سري مرتاحاً دون ذلك الحشد المبلل بالمطر، بل أكثرهم هدوءاً، وأقلهم تفكيراً بوضعنا، كان يكفيني نظرة منها، أو أسمع كلماتها التي تقولها عادة بعد تفكير، وهي قليلة، ولم تكن متحمسة أو عاطفية مثلنا، بل كانت ترى نفسها وسط الكون ويتوزع حولها العالم على شكل حلقات متداخلة، وكانت من النوع الذي لا يهتمها أمر الآخرين كثيراً، فقد لاحظت أنها تهتم بنفسها ثم أختها سميرة ثم الطفلين، أما نحن فكان اندماجها معنا ينطوي على الحذر في حدود تواجدنا معاً في مكان واحد فقط، ولم تكن تهتم بأمر ذلك الجمع المهاجر، ولا بمأساتهم، أو مظاهر الضعف والمرض والجوع الشديد.

أما القضية المركزية التي كانت سبباً للهجرة فلا يهتمها في شيء البتة. رغم تلك الصفات الشخصية التي عرفت بها تارا في ذلك الوقت القصير لتعارفنا، إلا أنها لم تقل من إعجابي بها وحاجتي لها.

تحدد عالمنا ذلك اليوم بمساحة البطانية التي نرفعها فوق رؤوسنا، إذ كان مجرد التفكير بأن نخرج خارجها ضرباً من الجنون، ولا يعني ذلك أن أجسادنا كانت بمنأى عن مياه المطر، بل العكس فقد تسلسل الماء إلى أجزاء من ملابسنا من الخارج ومن البطانية نفسها عندما تحتك أجزاء من أجسادنا بها أو الماء الذي ينضح منها، وكنا ننفضها بين فترة وأخرى حينما تمتلئ بالماء، وتصبح ثقيلة.

المشكلة الأخرى كانت حالة الطفل الصغير الذي يحتاج للخروج مع أمه لقضاء حاجته رغم أن معدته فارغة تماماً، إلا أنه كان مصاباً بإسهال

حاد ممزوج بالدماء، فكانت سميرة تأخذ معها بطانية لحماية نفسها والطفل قدر المستطاع، ويتعدون عنا مسافة قليلة ثم تعود وإياه. ولقد بدأت حالة الإسهال تستفحل بمعظمنا ذلك اليوم.

قبل المساء كان التعب والبرد قد شل أجسادنا، ورافق ذلك توتر شديد في أعصابنا، ونفذ الصبر، فقد أصبح البرد والجوع لا يطاقان. حتى أنا، لم أعد ذلك الصبامت الذي لا يسمع شكواه، فكنت أصيح في الموجودين معي مما أفقدني الكثير من وقاري. وفي لحظة يأس عندما امتد بصري إلى وجه الطفلين وإلى صالح ثم نرمين صعد الدم إلى وجهي واستجمعت ما تبقى لي من قوة وطلبت من فهمي أو عمر أن يتبادل القمصلات، فقال فهمي:

- ماذا أنت فاعل يا شفان ؟

- سوف أخرج للبحث عن طعام

فقال عمر:

- أين تذهب في هذا الجو القاتل؟

وقالت نرمين:

- هل تعتقد أن هناك من بقي معه طعام؟... وإن كان عندهم فهو

حتماً شحيح ويدخرونه لأنفسهم، وذلك حق

فقلت بعصبية:

- لا بد أن أحصل على الطعام بأية طريقة، لا أحتمل الموت تحت

هذه البطانية الزرقاء اللعينة

فقال صالح:

- نحن بخير أنتظر إلى أن يخف المطر قليلاً

وقال فهمي:

- أهدأ يا شفان أمكث أنت هنا سأذهب أنا وعمر

فقلت بعصبية:

- سأذهب أنا وحدي وبملايسي

فخلع عمر قمصته وتبادلنا

وقال فهمي:

- حسناً دعني أذهب معك

- كلا سأذهب وحدي

بعد أن أغلقت القمصلة على الجزء العلوي من جسمي وثبت إلى

الخارج وأنا أقول:

- ألزموا مكانكم، قد أتأخر بعض الوقت، لا تقلقوا

وفي العراء، كان المشهد مؤثراً، ومأساوياً، من الصعب تقبله حتى في فلم سينمائي واقعي، لقد كان يوماً من أيام الجحيم أو العقاب الجماعي بطريقة مبتكرة، كان المطر غزيراً بشكل استثنائي، والأرض موحلة، وقررت أن أنحدر إلى بطن الوادي الرئيسي، وكان الدافع الأساسي حب الاستطلاع ثم محاولة الحصول على بعض الطعام، ولم تكن في رأسي أية فكرة أخرى. أول مجموعة رأيته، عائلة ذلك الشاب على مقربة منا، كان الرجل يحاول عبثاً نشر بطانية فوق رأس أمه وزوجته وابنتيه، ولكن البلل قد أدرك أجسامهم جميعاً ويرتعدون من البرد، وأخذت الزوجة طفلتها في حضنها لتقيهم من المطر دون جدوى.

وعلى بعد أمتار منهم وجدت عائلة أخرى تغطي أجسادها بما لديها من غطاء مستسلمين للمطر والبرد وحكم الأقدار. ثم عائلة أخرى كثيرة العدد جلس معظم أفرادها القرفصاء على أرجلهم وتركوا أجسادهم تحت

رحمة المطر وهم يرجفون، ووجوههم شاحبة مبتلة. وكانت عشرات المجموعات على تلك الشاكلة، وقسم من الشباب وقفوا على أرجلهم وقد تحولت أجسادهم مع ملابسهم إلى قطعة من الماء الذي كان ينحدر من أجسادهم بغزارة.

وكان الناس يصيحون في الأطفال أو الأصغر منهم سناً دون سبب. ووسط ذلك البؤس وجدت عائلة كثيرة العدد أيضاً كانت قد أفلحت في الحصول على بعض الأخشاب الطويلة وغرستها في الأرض ونشرت فوقها عدة بطانيات، وجلسوا تحتها، وحفروا حولهم ساقية لتصريف الماء، ليبقى مكانهم جافاً نسبياً، وفي الوسط أشعلوا ناراً فقيرة بالأخشاب التي جمعوها بالأمس عندما وصلنا إلى المكان.

التقيت في جولتي بأولاد أعمامي وعماتي وعائلاتهم، وكانوا في حال أسوأ من حالنا بكثير، ولما سألتني ابن عمي عن أحوالنا قلت:

- لا زلنا أحياء، ونفترش بعض الصخور على ذلك المنحدر

- هل معكم طعام؟

- كلا

- لقد نفذ ما كان معنا من الطعام أيضاً، أين أنت ذاهب في مثل هذا الطقس؟

- لا أدري بالضبط فليس لي هدف معين

فقال زوج عمي:

- لا نستطيع استضافتك على أي شيء

- شكراً لكم

غادرت مكان إقامتهم منحدرًا صوب الوادي. كان منظر الناس تحت رحمة المطر يدعو للبكاء والضحك معاً، فكلنا لم نتخذ أية إجراءات تقينا من المطر، إذ كان لدينا المساء والليل بطوله، ولكن أظن أن أحداً منا لم يخطر بباله تلك العاصفة الشديدة من المطر والرطوبة والهواء البارد. وكان الناس قد انسحبوا من تلك الأرض المستوية قرب الوادي الرئيسي نحو المنحدرين اللذين يحيطان بالوادي الفرعي. وفي طريق العودة استوقفني أحد أعيان عشيرتنا وقال:

- أين أنت ذاهب يا أستاذ؟

- أتفقد أقبائي، فإن مع معظمهم أطفال صغار، والحمد لله وجدّتهم بخير

- ومن معك هنا؟ هل معك الوالد والوالدة؟

- كلا لقد آثرا البقاء في البيت في دھوك، والبقية معي هنا، وأنتم ماهي أحوالكم؟

- كما ترى ننتظر جميعاً رحمة الله، انه امتحان عسير وشديد ولكننا سنجتازه بعون الله بسلام

- هل تسمع الأخبار العالمية؟ وماذا يقولون عنا؟

- لقد سمعنا أنهم يرسلون لنا نجدات عاجلة، وأظن أن سوء الأحوال الجوية هي السبب في عدم وصولها لحد الآن

- لا أدري بالضبط، ربما لا تريد تركيا أن تتحمل المزيد من اللاجئين، وكما ترى فأن عددنا مخيف ولا زالت بعض السيارات تصل بشكل متقطع لنقل المزيد من الناس. ورأيت تلك اللحظات انتشار الأطفال بين المخيمات يستجدون الطعام من الناس، وكانت أجسادهم قد تحولت إلى

شيء مبتل وصغير، وأكثرهم حفاة، فقدوا أحذيتهم بسبب الأحوال على طول طريق الهجرة إلى (جهنم). كان مظهرهم كافياً لكي يجعل دعاة الإنسانية أن يصيحوا صيحة عظيمة قائلين وبصوت واحد:

- لا، ثم ينخرطون في البكاء ونحن على أعتاب القرن الواحد

والعشرين

وجاء طفل وطفلة إلى محدثي يطلبان شيئاً من الطعام، فنهرتهم زوجته

قائلة:

- ليس لدينا طعام هيا اذهبا إلى أهلكما

غير أن عبد الله قال لهما:

- انتظرا

وذهب إلى زوجته وطلب منها أن تقدم لهما شيئاً من الطعام، وبعد نقاش حاد عاد عبد الله ومعه بعض الخبز اليابس على شكل قطع صغيرة قدمها للطفلين اللذين التهماها في لحظات وذهبا إلى مخيمهما. كان مخيم عبد الله أفضل حالاً مقارنة بحال الناس، فقد تدبر أوتاداً، وأقام سقفاً مائلاً يقيهم الكثير من المطر. ثم قال لي عبد الله:

- كم عددكم؟

- أنا وثلاث من أخوتي وأختنا وعائلة مسيحية تتكون من أربعة أفراد

فقال:

- لحظات وأعود إليك

وذهب ناحية زوجته ودار بينهما نقاش طويل نسبياً ولكن بصوت خافت أقرب إلى الهمس منه إلى الكلام، ثم عاد إلى حيث كنت أقف ومعه سرّة من القماش، وقال:

- نخذ هذا الطعام ووزعه على من معك

- كلا لن أخذ طعامكم، فأنتم أسرة كبيرة ومعكم أطفال صغار هم أحوج إليه منا

- لقد أبقيت لهم حصصهم وهذا من نصيبكم، ثم أقسم بالله والقرآن

فأخذت منه الطعام مرغماً، وشكرته كثيراً وودعته. ولكنه أمسك بيدي وسحبني ناحيته قائلاً:

- خبيء الطعام تحت القمصة، لئلا تتعرض إلى هجوم في الطريق فقلت مستغرباً:

- هل هذا معقول؟

- نعم إن الجوع أخذ يستفحل في الناس، وحدثت قربنا حالتان، هجم جماعة على جماعة أخرى وسلبوهم طعامهم وأشبعوهم ضرباً أيضاً

خبأت الطعام تحت القمصة وأغلقتة بأحكام وعدت إلى أخوتي غير مصدق، رغم أنني لم أكن أعلم بنوع الطعام أو كميته بعد. وفي طريق العودة كان عشرات الألوف من الناس على شفى حفرة من أن يتحولوا إلى جزء متجانس مع ذلك السيل الجارف والأمطار والأوحال، فرفعت رأسي إلى السماء وتمنيت متوسلاً أن ترحم ذلك الجمع المظلوم الذي جرد من كل شيء، وبدلاً من أن تقضي عليهم قوات السلطة، هاهم تحت رحمة السماء ينتظرون الموت من الجوع والبرد والمطر والمرض. تألمت غاية الألم، وكرهت نفسي كوني أتمي إلى عالم الإنسان للمرة الثانية، وكرهت نفسي لنفس السبب أيام الحرب العراقية الإيرانية حينما كانت تعرض الأفلام الوثائقية عن جثث القتلى بكل صدق وأمانة، بل كان التركيز مقصوداً على أبشع المناظر، تلك التي خبأ العالم مثيلاًها من أيام الحربين العالميتين، ولم تعرض على الجمهور لبشاعتها.

وصلت إلى حيث مخيمنا، وأصبحت داخل البطانية التي ابتلت بشكل كامل وأصبحت لا تفيد معها عمليات نفذ الماء التي تتكرر بانتظام. كنت مبتلاً كثيراً وبخاصة القمصلة التي حفظت الجزء العلوي من جسمي من المطر، أما رجلاي فقد تسلل الماء إلى جسدي بغزارة، كذلك الجوارب، وأصبح الحذاء مغلفاً بالأطيان الكثيرة.

قال عمر:

– ماذا دهاك لتخرج إلى العراء؟

وقال صالح:

– كيف أحوال الناس؟

– سيئة للغاية وتنذر بالخطر لا محالة

نزعنا القمصلة وتبادلنا مرة أخرى أنا وعمر، بعد أن حاول هو وفهمي عصرها قدر ما استطاعا، وقمنا بعصر سروالي أيضاً وبكل قوتنا.

وعندما رأوا سرقة القماش، فرح الجميع وتحلقوا حولها، فدفعتها إلى مسؤول التموين، الذي قام بفتحها، فكان فيها ثلاثة صمونات شبه يابسة، وحفنة من الخبز اليابس وقد تحول إلى قطع صغيرة، وعشر قطع من التين المجفف، ومثلها من التفاح المجفف.

كانت فرحة لا توصف، وقام فهمي بتقسيمها بيننا بالتساوي. ورغم قلة الطعام الذي تناولناه، فإن وضعنا النفسي تحسن قليلاً.

وكانت تارا فرحتي وراحتي رغم الظروف التي كنا فيها، وكانت تبسم أثناء تناولها الطعام وهي نصف مبلة وترتجف من شدة البرد، وتحاول تهدئة أختها التي فقدت أعصابها لأسباب كثيرة.

وجاء الليل مرة أخرى، وكانت ليلة لم يصدق أحد منا أن يبقى فيها إنسان بعدها على قيد الحياة، وكان المطر لم يزل ينهمر يجنون دون انقطاع، وسبح المكان في ظلام دامس، فلا نيران ولا أصوات غير صوت المطر، وقد حاول فهمي تصيد بعض الأخبار دون جدوى بسبب سوء الأحوال الجوية من غيوم وبرق ورعد. وتكورنا تحت البطانيات بعد أن توزعنا إلى مجموعات، مستفيدين من أربع بطانيات شبه جافة نغطي بها أنفسنا، وكل مجموعة مسؤولة عن نفسها وعن مصيرها حتى الصباح.

قيل منتصف الليل تعالت الصيحات ليس بعيداً عنا، وكانت النسوة يكين بكاء مرأً، ورأيت ضوء مصباح يدوي يتجه ناحيتهم، فقال صالح: - ربما مات أحد

وقالت سميرة متحبة وهي تحت البطانية مع أطفالها:

- كلنا سنموت عن قريب ارحمنا يا رب

وقال لي عمر:

- ماذا ستفعل أيها الزعيم لو مات الآن أحد أفراد شعبك؟

- سنقوم في الصباح بحفر حفرة وندفنه فيها

وبدأنا نخاف من الموت الذي بدا قريباً منا كثيراً، وأخذت أجسادنا المبتلة تزداد رعشة ويتسلل إليها مزيد من الضعف، ورغم ذلك أشعلت لنفسي سيجارة ورفعت طرف البطانية ليخرج الدخان إلى الخارج، وبعد عدة أنفاس عميقة رميتها بعد أن أدركها الماء فانطفأت.

استمر الحال كذلك حتى الصباح وأخذ كل منا لنفسه غفوة أو أكثر قبل أن تبتل البطانيات كلياً في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، وكنا نقوم بنفضها كل مرة.

كان البرد أشد من أن يحتمل. ولم تكن كل مجموعة، من تلك  
المجاميع التي لا تحصى، تعلم بأنخبار ما هو خارج حدود مخيمها. وفي  
صباح اليوم التالي خف المطر بشكل ملحوظ، وجلسنا مرة أخرى نحاول  
الاحتماء ببطانية واحدة نتعاون على رفعها فوق رؤوسنا بعد أن تم  
عصرها بشدة لتخليصها من أكبر كمية ممكنة من الماء.

كانت تارا جالسة بهدوء، ووجهها الذي بدأت أحبه يغمره الحزن  
والضجر، وتحاول جاهدة أن تمسك بأطراف البطانية لحماية نفسها  
وأطفال أختها، وعندما التقت نظراتنا لم تصمد كثيراً، ولا بد أنني حملت  
نظرتي أكثر مما يجب ونحن في تلك الظروف التي من المفروض أن تحمل  
تلك المشاعر، وشعرت أننا في مخيمنا نملك شيئاً نفيساً لا يملكه  
الآخرون، وأدركت أن تارا نعمة وهبها السماء في تلك الظروف التي لا  
يستطيع المرء أن يقدم فيها الشيء الكثير. وكعاداتي أطلقت العنان لخيالي  
الواسع، ورحت أنسج الأحلام والتمنيات بنقاء لا يرقى إليه الشك.

وكان كلما مر الوقت يزداد الناس سوء وخوفاً، أما أنا فقد كان يزداد  
ارتياحي، وأستحسن وجودها، وأراقبها خلصة، وأنظر إلى وجهها، وكانت  
هي من جانبها تفرح لاهتمامي بها ونموه السريع، دون أن يبدو عليها  
شيء، بل كانت حريصة على أن تضع انفعالاتها في إطار محايد لا يخرج  
كثيراً عن الأدبيات التي نتبادلها في جو رسمي صرف. في ذلك اليوم  
العصيب تسلل إلى تفكيري شعور آخر، وهو عدم الرغبة في أن تتركنا تارا  
وترحل.

حتى هناك، في ذلك المكان الجبلي القاسي، بعيداً عن كل مظاهر  
المدينة وكذبها وزيفها وأقنعتها المفضوحة لا يستطيع المرء أن يخلق بعيداً

مع أحلامه الفارغة التي لا بد منها، فقد قال عمر بعد أن لم يعد متحملاً صمتنا:

- إخوان لدي طريقة

فقلت نرمين:

- هل هناك طريقة تثير الضحك أكثر من حالنا؟

فقال عمر:

- حالنا فلم سينمائي

وقال فهمي:

- متى ينتهي هذا الفلم؟

فقال عمر مازحاً:

- لا أنها طريقة جديدة

وقال صالح:

- اسمعنا إياها

فقال عمر:

- إخوان أنا جوعان

ساد بيتنا صمت حتى قالت تارا:

- أين هي الطريقة؟

فقال عمر:

- أنا جوعان

فضحكنا جميعاً على أنغام قطرات المطر التي تضرب وجه البطانية  
وتصدر تلك الأصوات التي تثير أعصابنا وتزيدنا مللاً.

في تلك اللحظات علا صوت النحيب والبكاء شمال مخيمنا، أي  
باتجاه المنحدر صوب الوادي، فوثبت على أقدامي خارجاً من تحت  
البطانية. فقال فهمي:

- ما ذا بك؟

- لا أدري يجب أن أتفقد أقباءنا فالأصوات تأتي من ناحية  
مخيماتهم

فقال صالح:

- وهل يجب أن تذهب في هذا الطقس المميت؟

- بالطبع يا أخي، فأطفالهم كانوا مرضى أيضاً

وقالت نزمين:

- ما أدراك أن أقباءنا أصابهم سوء

طلبت من فهمي أن يعيرني قمصته، ورغم أن الفكرة لم تعجبه  
حيث قال:

- إننا نموت يا شفان ، وكما ترى نحاول جاهداً أن نقلل من كمية  
المياه التي نسبح فيها

وأمام تعنتي أضطر إلى خلعها وتبادلنا القمصلات ورحت ناحية  
مخيمات أولاد أعمامي وعماتي، وبقية أقباءنا الذين كانوا يفتشون  
مساحات متجاورة بعضها مع البعض الآخر.

وعندما وصلت هناك، وجدت ابن عمي الأكبر وعائلته الكبيرة  
العدد جالسين القرفصاء يلفون أجسادهم بالبطانيات بشكل جماعي وهم  
بحالة يرثى لها من البلل والبرد والجوع، وبعد أن سلمت عليه قلت:

- هل أنتم بخير؟

- الحمد لله، لا زلنا أحياء، وأنتم، كيف هي أحوالكم؟

- حالنا من حال هؤلاء الناس

وبعد أن اطمأن قلبي على أقبائي عدت مسرعاً إلى اخوتي. وفي الطريق وجدت عائلة صغيرة يبكي أفرادها بكاء مرأ، وكانت امرأة تحضن كيساً من النايلون وفي داخله جسد طفل رضيع فارق الحياة، وترفض التخلي عنه، وكان فوق رأسها جمهرة من الناس لا يبالون بالمطر وهم في أشد حالات الهلع والخوف والصمت، ويحاول الرجال إقناع الأم لتسلم لهم جثة الطفل المتوفي ليقوموا بدفنه. أرتعد جسدي وأصابته قشعريرة وخوف أيضاً. ورأيت تكرار ذلك المشهد عدة مرات أخرى في طريق عودتي إلى مخيمنا.

عندما عدت إلى اخوتي، جلست تحت البطانية، وقالت نرمين:

- ما هي الأخبار؟

- أقباءنا بخير

فقلت سميرة:

- وماذا كان سبب ذلك البكاء والصراخ؟

- لقد بدأ الأطفال الرضع وكبار السن يموتون، ولقد حدثت عدة حالات وفاة منذ الليلة الماضية، وعلمت أيضاً أن بعض الدول والجمعيات أرسلت البارحة مساعدات عاجلة، هي عبارة عن مواد إغاثة متنوعة بواسطة الطائرات، إلا أن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح بسبب

رداءة الأحوال الجوية، فسرعان ما عادت تلك الطائرات بعد أن أخطأت أهدافها وخافت من السقوط.

ومر ذلك النهار أيضاً، ثم جاء الليل، ونحن لم نزل في داخل ذلك السجن الذي فقدنا فيه أعصابنا وبدأ الخطر يدهمنا، وأقصد تحت البطانيات، ونجلس على تلك الصخور الصلبة، تحت رحمة المطر الذي لم ينقطع ولو للحظة، يقتلنا البرد والجوع والمرض. وزاد عدد الوفيات من الأطفال وبعض المعمرين، وحدثت حالات الإسقاط بالنسبة للنساء الحوامل وفي الشهور المختلفة.

لم تتوقف الحياة بكل مظاهرها وحركتها، انه الزمن الذي يسير إلى الأمام دون راحة. في تلك الليلة وبعد أن هدأت كل حركة حولنا ولم نعد نسمع أصوات الناس . كانت تسليتنا بعض الأحاديث القصيرة والتدخين المستمر وعلى معدة خاوية بالنسبة لي وفهمي وعمر، حتى أن نرmin قالت مرة وبازدراء:

– ألا تكفون عن شرب هذا السم وبطونكم فارغة؟

بعد منتصف تلك الليلة، سمعت وقع أقدام وأصوات قرب مخيمنا، تشق سكون الليل، وأخذت تقترب منا تلك الأصوات، فرفعت جانب البطانية، كان الظلام دامساً، وكان فهمي وعمر يقظين أيضاً، فتوقفنا عن الكلام لنسمع تلك الأصوات بوضوح، ثم ظهر رجلان ومعهما مصباح يدوي، وطلب منا عمر أن نكون على حذر، فكل شيء قد أصبح ممكناً أن يحدث وسط جمعنا غير المتجانس الذي وصل أفراده إلى حافة الانتهاء الجماعي. وقال أحدهما بعد أن سلم بهدوء:

- أرجوكم، نحتاج إلى امرأة خبيرة بشؤون الولادة، فلدينا امرأة حامل على وشك أن تلد  
فقلت له:

- نعتذر، فليس بيننا امرأة بتلك المواصفات  
شكرانا واعتذرا، ثم انصرفا يبحثان عن قابلة بين الجموع التي اختبأت تحت الأغشية المبتلة. لم يكلف أحد منا مجرد التحرك من مكانه، حيث تحول المطر تلك الأيام إلى وحش مخيف.  
وأذكر أن تارا قالت:

- ألم يكن بوسعها الانتظار لحين توقف الأمطار؟، ستموت هي ووليدها حتماً في هذه الظروف التي باتت تشكل خطراً على أقوى الناس فينا.

مضى الليل بطيئاً، ونحن في جوف الظلام ووسط ذلك السكون المخيف إلا من صوت المطر والبرق، وبعض الأصوات المتقطعة الأخرى التي كانت تأتينا من مسافات متباعدة بسبب حالات الوفيات التي أخذت تزداد مع الوقت واستمرار تلك الظروف الجوية السيئة.

وسمعنا أن حملة الإغاثة الجوية فشلت لليوم الثاني على التوالي في العثور والوصول إلى أهدافها بسبب الغيوم الكثيفة والرياح والأمطار الغزيرة. وكان يحدونا الأمل أن أحوالنا ستتحسن، وربما تصلنا مواد غذائية عاجلة بمجرد أن يتوقف المطر، لذلك فقد كرهنا المطر ذلك اليوم أشد الكره.

في تلك الليلة، تذكرنا أنا وأخوتي وأختي الوالدين وثلاثة أخوة آخرين بعيدين عن ساحة مأساتنا حيث كانوا يقيمون في مدن أخرى جنوب مدينة دهوك.

انقضت آخر ليلة من ليالي جهنم كما أسماها بعض الشباب، وقصدوا بذلك كل تلك الليالي التي كان المطر يداهمنا فيها، حيث أن الأمطار التي هطلت بعد ذلك لم تكن غير قطرات لم تبلل وجه الأرض. وجاء اليوم التالي لآخر ليلة قضيناها تحت رحمة مطر غزير، وتغيرت أشياء كثيرة نحو الأحسن، فيما اتجهت بعض الأمور الأخرى بالاتجاه المعاكس. وأول المكتسبات كان توقف المطر نهائياً، ويعني ذلك الخروج إلى العراء، حيث الحرية والحركة والالتقاء بالناس، وجعلهم ذلك أن يزحفوا إلى مناطق أعمق داخل العراق للبحث عن أرض أقل بللاً ورطوبة. وثاني الخطوات كان وصول بعض اللوريات والتراكتورات التي تسحب وراءها صناديق حديدية، وهي محملة بالصموم والبسكويت ومواد أخرى، ولكن الذين حصلوا على شيء من أول قافلة للمساعدات لا يستحق الذكر، إذ بمجرد وصولها هب الناس لاستقبالها من مسافة بعيدة، وظلوا يركضون أمامها ووراءها وعلى جوانبها على شكل مجاميع من الشباب، وهجموا على تلك المواد وسرقوها ومزقوها وهي لم تنزل على ظهر السيارات، وبسبب الجوع الشديد لم يستطع أفراد الشرطة أو نداءات بعض المعتدلين من جمعنا على أن تلزم الناس جانب الهدوء ليتم توزيعها لتشمل أكبر مجموعة من الناس. كانت كما قال أحد المعمرين، نقطة في بحر.

توافد مئات آخرين من المهاجرين إلى (جهنم)، أولئك الذين تخلوا عن فكرة التوجه نحو الحدود الإيرانية، لبعد المسافة، عادوا من مدن العمادية وديره لوك وما جاورها من المناطق، وكانوا أسوأ منا حالاً في كل شيء، فقد أمضى قسم منهم أكثر من عشرة أيام في العراء، أما تلك الأمور الأخرى التي أضرت بنا كثيراً، هو استفحال الإسهال والديزانتري بيننا على شكل وباء، مع تباين حالات الإصابة وشدها. وكان الموت يحصد الأطفال الرضع والصغار والمعمرين والمعمرات من جمع المهاجرين.

بعد خروج الشمس هب الناس ليقضوا على الغطاء النباتي لقلعه وتقطيعه بكل الوسائل لجمع الحطب، وإشعال النيران التي أدخلت إلى أجسادنا الدفء بعد أيام طويلة كانت خلالها تسبح فيها أجسادنا وملابسنا في مياه المطر. وقمنا نحن أيضاً بتغيير مكاننا، وجرى الاتفاق على اختيار بقعة مستوية جافة نسبياً، وانتشر أفراد المجموعة عدى سميرة وأطفالها لجمع الحطب، وفي وقت قصير جمعنا كمية وافرة من الحطب ولم تكن غير قطع أغصان رفيعة وبعض القطع من جذوع أشجار هرمة وغيرها. وكانت مشكلتنا مثل الآخرين هو أن كل شيء حولنا رطب تماماً، لذلك جمعنا أيضاً كمية معقولة من العشب اليابس لوضعها أولاً في الحفرة التي حفرناها كموقد ثم وضعنا فوقه الأغصان الرفيعة ثم الأسماك وفي الأخير الأجزاء الخشبية الغليظة، وبعد جهود جادة وصبر انتشرت النار في الحطب، وعظمت النار تدريجياً بعد أن امتلأت عيوننا بالدخان، وكنت أنا وصالح وتارا من قاموا بترتيب الحطب وإشعال النار.

وأثبتت تارا من حديد كفاءة عالية في العمل وتعاوناً جاداً، كنا خلالها نتبادل النظرات العميقة الصامتة، وكانت تحاول أن تزج برأيها في

ترتيب الخطب وقد طرحت الكثير من بأسها وأخذ وجهها الجميل يتورد  
بفعل الحرارة وقد ربطت شعرها من خلف الرقبة.

وعندما غادرنا صالح إلى حيث يقف بقية اخوتي وأختي بناء على  
طلب عمر بقينا لوحدهنا على بعد خطوات منهم. وكانت سميرة قد  
أخذت طفليها لتتمشى قليلاً بين الناس. وأذكر أنني نظرت إلى وجهها  
بعمق وحملت نظرتي الشوق إلى كل الأشياء التي فقدتها في حياتي وكانت  
السبب في رسم ملامح الصمت والتأمل على وجهي، وقلت لها:

- كيف أنت الآن يا تارا؟

فقلت باستحياء:

- الآن أفضل، لأننا تخلصنا من المطر والبرد، ونستطيع التمتع  
بالدفء والمشي ومشاهدة الناس والتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة.

- أحسنت القول يا تارا، ان ذلك ما أفكر به أنا نفسي

- وبزوال الأمطار ستصلنا المساعدات بشكل أسرع وأوفر كمية.

وعندما رفعت وجهها الجميل التقت عيوننا وراحت تحاور بعضها  
البعض، وفرحت كثيراً وكادت عواطفها تتفجر وتستسلم لألوان عينيها،  
لوسعهما، لضحكهما، لعمقهما، وكنت على وشك أن أرفع راية بيضاء  
لحلوة الجبل (كما أسميتها فيما بعد)، لولا أن تداركت أمري في اللحظة  
الأنخيرة وأمسكت بوقاري واتزاني، ثم قلت لها:

- هل تعرفين معنى أسمك؟

فقلت:

- نعم

- إذا كيف صادف أن اختاروا لك اسماً كـدياً؟

- لا أدري بالضبط، لقد اختاره لي أبي رحمه الله

- وكيف بقيت فتاة جميلة وذكية مثلك من غير زواج لحد الآن؟...

لا بد أن شبابكم المسيحيين فقدوا معايير الذوق وحسن الاختيار

- انهم فعلاً يركضون وراء المال وأنوفهم عالية، ثم يتزوجون أسوأ

النساء. لا أدري، ربما الزواج كما يقولون قسمة ونصيب

- لا أظن ذلك، انه اختيار، ويجب أن يكون واعياً وخاضعاً لمعايير

دقيقة، ولكن أغلب الناس يخطئون الاختيار

- وكيف يحدث ذلك برأيك؟

- السبب الأول هو وهم الحب الذي يبدو للناس كبريق ساطع

يعمي البصيرة والموازن والمقارنات المنطقية والعملية، وصعوبة التمييز

والفصل بين دوافع الرغبة واكتشاف النفس البشرية.

- وما هو السبب الثاني؟

- الخضوع للمصالح وتفضيل الظواهر على السلوك ومنهج التفكير

والوقوف بشكل صادق على تحديد نقاط الالتقاء التي يجب أن تتحول

بفعل العشرة إلى موسيقى هادئة ذات أنغام تحاور الوجدان وتنسجم مع

الحياة والطبيعة.

- ولماذا يخطئ الناس؟، ويكتشفون بعد الزواج بمدة قصيرة أن تلك

العواطف الجياشة لم تكن غير وهم وخيال؟

- أظن بسبب زيف العلاقات الاجتماعية والجهل وقلة الخبرة بسبب  
عدم الاختلاط السليم والطبيعي، وعدم انسجام المجتمع، فالكل مقنع،  
ويجيد الكذب وفن إخفاء العيوب، وذلك يعود إلى أسباب كثيرة، من  
عادات موروثة وخضوع الكل إلى أفكار لا تتناسب مع تطلعات العصر.  
كانت تنصت إلى كلامي باهتمام بالغ، واستحسان واضح، ثم  
قالت:

- وأنت يا أستاذ شفان ، لماذا لم تتزوج لحد الآن؟

- هل أستطيع أن أطلب منك معروفاً

- بالتأكيد يا أستاذ، قالتها وهي تبتسم بشفتيها وعينيها

- أرجو أن تناديني منذ هذه اللحظة باسمي المجرد، هل هذا ممكن؟

فابتسمت وقالت:

- حسناً إن كانت تلك رغبتك

فقلت لها:

- لقد سرقنا السنين منذ الحرب العراقية الإيرانية الطويلة، وقبلها كان

جل اهتمامي بأمور أخرى

- هل كانت تلك الأسباب هي الوحيدة التي جعلتك تبقى عازباً

لحد الآن؟

- أظن أن الزواج في كل الأحوال قرار آني يأتي لأسباب عديدة،

واعتقد أن عدم التقائي بامرأة تحمل كل الموصفات التي أريدها أن تتوفر

في الفتاة التي سأرتبط بها كان عنصراً هاماً.

- وما هي الأوصاف المطلوبة؟

وتمنيت أن أقول لها أن أكثر الأوصاف التي بحثت عنها طويلاً أجدها في وجهك ونفسك، غير أنني تمالكت نفسي مرة أخرى، وقلت لها:

- في الحقيقة إنها كثيرة، ولا يمكن أن تتوفر كلها في جسد واحد، منها الثقافة وعناصر الجمال وروح العصر

في تلك الأثناء قدم الآخرون وانقطع حديثنا، وتحلق اخوتي ونرمين حول النار ثم جاءت سميرة وبدأنا بنشر البطانيات على أوتاد خشبية بشكل عمودي أمام النار، وكذلك القمصانات وقطع ملابس أخرى؛ لكي تحف لمقاومة البرد وبخاصة في الليل.

كان عمر وفهمي ونرمين يتبادلون نظرات كثيرة وهم يتسّمون، وكنت أفهم سبب تلك الهمسات، وبالطبع لم يكن من مصلحتي أن أسألهن عن سبب ذلك. المهم كان منظري ومعنوياتي العالية مبعث فرح لهم، وسرني ذلك كثيراً.

وبعد أن تسلل الدفء إلى أجسادنا، توقفنا عن الارتعاش ولم تعد أسناننا تصطك ببعضها، فبرز الشعور بالجوع بشكل لا يقاوم.

بعد الظهر من ذلك اليوم وصلت عدة سيارات محملة بالمواد الغذائية، فطلبت من قواتنا الخاصة (وأقصد فهمي وعمر) التوجه نحوها لعلهم يفلحون في الحصول على شيء، وفعلاً ركض الاثنان، ولكن تلك السيارات غابت في أحشاء ذلك الجمع الغفير الهائج، وفي وقت قصير تركت تلك السيارات فارغة، وتمزقت معظم الأكياس. وكان ذلك اليوم يوم الأقوياء والمغامرين، فقد حمل البعض منهم كيساً كاملاً على ظهره، وتحلق حوله اثنان أو ثلاثة رجال لحمايته، ويحاول البعض الآخر ممن لم

يحصلوا على شيء أن يهجم على تلك الأكياس التي يحاول أصحابها جاهدين لنقلها إلى مخيماتهم بسلام، وقد أفلح البعض في تمزيق بعض الأكياس وهي محمولة من قبل أصحابها بواسطة آلات حادة وتناثر ما كان بداخلها من الصمون، وهجم عليها الناس بالعشرات وعادت الجماعة الأصلية صفر اليدين، وكانت بعض الأكياس الأخرى قد تمزقت بين أيدي فئات تتصارع للحصول عليها، وحدثت حالات دهس للأطفال ووقوع جرحى من جراء التزاحم والتصادم وبعض المعارك الصغيرة. وقفت على صخرة عالية مع نرمين وصالح وتارا التي كانت تحاول أن تظهر أمامي بأفضل صورة نراقب ذلك المشهد المؤلم، كان صراعاً مشروعاً من أجل البقاء وعلى طريقة عصر الغاب.

وبعد وقت قصير عاد فرساننا من أرض المعركة صفر اليدين، ولم يستغرب أحد منا، لأن كمية الطعام الذي وصل إلينا كان شيئاً لا يستحق الذكر قياساً إلى عددنا الهائل وإلى حالة الجوع الشديدة التي عشناها لأيام عديدة. وبعد أن أنضم فهمي وعمر إلينا عدنا إلى أرض المخيم، وكان مظهرهما يدعو للضحك والألم والشفقة، من التعب والجهد الذي بذلاه في ساحة المعركة! ومعدة فارغة تماماً ومنذ أيام. ثم بدأ الوضع يستقر، وهمدت تلك الحركة على شكل أمواج بشرية، نسيت كل شيء في سبيل الحصول على رغيف خبز واحد، وانتهى ذلك الصراع الذي لم يكن لينخطر ببال أحد منا أن يشاهده طول عمره.

بعد ذلك بدأ الفصل التالي، حيث انتشر الأطفال يجوبون التجمعات لاستجداء الطعام، ولم يقتصر ذلك العمل على الأطفال فحسب بل شاهدنا رجالاً ونساء لم يجدوا حرجاً في طلب الطعام لإسكات جوع أطفالهم على الأقل من الذين أسعفهم الحظ أو بسبب من أجسامهم

القوية في الحصول على الطعام. وفي مخيمنا وقف فهمي وسطنا مرفوع الرأس، يحاول كتمان ضحكة وسط تألنا ونخبة أملنا في الحصول على شيء من الطعام، وبدلاً من أن يخطب فينا، كما دل مظهره، مد يده إلى سحاب قمصاته وأنزلها فسقطت سبع صمونات وسط دهشتنا، وفرحنا جميعاً كالأطفال، ولاحظت ذلك التغير الهائل مرسوماً على وجه نرmin وتارا وصالح والأطفال، وقال فهمي بصوت عال وبحركة مسرحية يتقنها جيداً:

- كلوا الطعام يا جوع الشعب، واطلبوا من الله أن يحفظ قواتكم المسلحة!

تم توزيع الطعام، ورغم قلته أعاد إلينا الأمل في مواصلة الحياة، وارتفعت معنوياتنا، بحيث عدنا بعد أن فرغنا من تناوله إلى ممارسة المزاح وتبادل الأحاديث المختلفة.

وبدأ الناس بالانتشار هنا وهناك لاستكشاف المكان، والترويح عن النفس وتبادل الزيارات، وجمع الحطب وتحسين مخيماتهم، فقد ارتفعت عدة غرف أو لا أدري ماذا أسميها، فقد كانت غرف مبنية من أعواد الخشب والبطانيات وأغطية أخرى، بهدف التستر والاستعداد لأية موجة أخرى من الأمطار. ولاحظنا ولأول مرة أولى مظاهر الربيع من الحشيش الأخضر الذي نبت في بعض المناطق. ولاحظت تارا جالسة على بعد خطوات منا وقد مدت ساقها وأخرجت من حقيبتها اليدوية مرآة دائرية صغيرة، ذات إطار بلون الحشيش، وفيما بعد رأيته عن قرب، وكان ظهرها قهوائياً داكناً يحمل رسوماً لثلاث سمكات إحداها كبيرة ومسطحة

في الوسط، واثنان طويلتان على جانبيها، وكانت المرأة نفسها قديمة فيها الكثير من النقاط الداكنة.

وفي تلك اللحظات التي يشعر فيها المرء بالأمان ويتجاوز بسلام أزمة ما، يعود تفكيره إلى أيام أجمل من واقعه أو قد يحلم بحياة أفضل، وأظن أن أغلب الناس في (جهنم) ذلك اليوم، كانوا قلقين كثيراً على بيوتهم وما فيها من أمتعة وأثاث وكل ما يملكون من محلات ومرافق تجارية وبضاعة، وعلى السيارات التي تركوها في كاني ماسي تحت رحمة السماء، والتي تعرضت إلى أكبر حملة عبث ونهب وتفكيك أجزاء من قبل البعض من أفراد مجامعنا المهاجرة التي كانت تتسلل إلى تلك السيارات وتأخذ منها كل ما يمكن أخذه ونقله لبيعه إلى الأتراك لقاء الحصول على المال.

والسبب الثاني قلقنا الجماعي على مستقبلنا المجهول، فبعد (جهنم) أين يمكن أن تكون المحطة التالية؟، هل سينقلوننا إلى مخيمات دائمة كما حدث للذين هربوا من الموت في عمليات الأنفال عام 1988 والذين لا زالوا هناك؟، والنقطة الأخرى التي كانت تشغل تفكيرنا، هل سيبقى حالنا على ما هو عليه إذا قدر لنا أن نبقى هناك مدة طويلة؟ أم ستصلنا مساعدات جادة ووافرة وشاملة، تحمينا من الجوع والأمراض، وكنت أسمع تلك الأحاديث هنا وهناك عندما قمنا أنا وتارا ونرمين بجولة قصيرة، بعد أن تأبطت ذراعي وطلبت مني ذلك ثم قالت لتارا التي كانت لم تنزل تتفحص أسنانها:

- تارا، تارا هل تنضمين إلينا؟

- إلى أين؟

- نتمشى قليلاً مع الرئيس ما رأيك؟

فقلت:

- حسناً انتظراني

ورببت حاجاتها وانضمت إلينا. توقفت فجأة وناديت فهمي وعمر،  
فلما حضرا قلت لهما:

- تفقدا حالة المخيم والخطب، وتدبرا أمر ما قد يلزمنا من الخشب  
وترتيب المخيم استعداداً لليل  
فقال عمر مازحاً:

- هل انقسمنا إلى قيادة وشغيلة؟

وقال فهمي مازحاً أيضاً:

- هل من العدل أن ينفرد الرئيس بفتاتين جميلتين ونقوم نحن بكل  
الأعمال؟

ضحكنا ونحن نبتعد عن جماعتنا، نرمين إلى يميني وبعد تردد أصبحت  
تارا إلى يساري، ولأول مرة شعرت بها وتفحصتها عن قرب ولأطول فترة،  
وشعرت بقلبي يخفق ثم أخذ يرقص، وأنا أحاول السيطرة على انفعالاتي،  
وكانت فرحة غامرة في تلك اللحظات ونحن نتكلم عن الأمس وحاضرنا  
ومستقبلنا ومواضيع عامة أخرى وفي شتى المجالات، وكانت نرمين تتكلم  
عني وعن حياتي وبعض المهارات التي أتقنها، أما أنا فكنت أفكر لحظتها  
بذلك الشاب المسيحي (صباح) لثلاث نمر بمخيمهم ويعود لينفرد بها،  
ويشبعها من تلك النظرات النهممة بعينيهِ الجاحظتين، ويغيظني بهدوء.  
وبقدر ما كنت في حالة ممتازة بدأت أفكر بالفراق الذي لا بد منه.  
ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل اقترحت تارا علينا أن نتوغل قدر

الإمكان بعيداً عن المخيمات للبحث عن بعض الأخشاب التي يمكن قلعها وجمعها لاستعمالها كحطب، وكذلك عدة أغصان طويلة لاستعمالها في إنشاء سقف إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وافقتها نرmin وكذلك أنا على مقترحها أيضاً مع سرور واضح.

استمرت تلك الجولة ساعة من الزمن، تكلمنا كثيراً، وكانت تحسن الإصغاء باهتمام، وتتكلم قليلاً، وكنت كلما تلتقي عيوننا أحاول النفاذ إلى نفسها المجهولة من خلال عينيها. وقالت نرmin بعد أن لاحظت انسجامنا بوضوح:

- شفان ما رأيك بتارا؟

لم أجبها على الفور ثم قلت بتردد:

- ماذا تعنين؟

- أقصد ما رأيك بشخصيتها، بما كفتاة

- لقد عرفناها من مدة قصيرة يصعب معها الحكم عليها

فقلت مازحة:

- هيا يا شفان تخل في هذه البرية عن المثاليات، وقل رأيك، هل من المعقول أن يعجز من بخبرتك عن تحديد بعض المعالم الشخصية في عشرة أيام؟

وكانت تارا مطرقة الرأس لحظتها وقد استنفرت سمعها لما سأقوله في حقها. وأخيراً قلت:

- إنها فتاة هادئة كثيراً وصامتة، وغامضة، وإن هدوئها يحمل في داخله حب الذات والمزاجية، قليلة الخبرة والثقافة، ذكية وطباحة جيدة، تحب أسرتها وكفى. أليس كذلك يا تارا؟

فأحمر وجهها الجميل واتسعت حدقتها، وابتسمت ثم قالت:

- لا أدري يا أستاذ

فقلت نرmin:

- هيا أيها الرئيس لم أقصد تلك الصفات كلها

- ما ذا قصدت إذا؟

- مثلاً شعرها، وجهها، قوامها... الخ

- حسناً إن كان لا بد من ذلك، أود القول أن الشباب من المسيحيين الذين عرفوها لا بد أنهم يفتقرون إلى الذوق والإحساس والبصيرة، أظن أنها ربة بيت ممتازة ورفيقة على قدر واف من الإخلاص وتقدير العشرة.

قالتفت نرmin إلى تارا قائلة:

- هو دائماً هكذا، إنسان جدي ومتشعب وصارم في رأيه

فابتسمت تارا، ثم عادت نرmin وقالت لتارا:

- ما رأيك أنت بنا جميعاً؟

فقلت بتردد واضح:

- أنتم عائلة متماسكة وطيبة، وعلى قدر كبير من الثقافة والخبرة والذكاء وقوة الشخصية

فقلت نرمين:

- من من أخوتي حاز على إعجابك أكثر؟  
فلما ترددت تارا في الأجابة عادت وقالت لها:  
- أقصد بصورة عامة

فقلت:

- لا أدري لقد أبديت رأي

فقلت لنرمين:

- دعيها وشأنها كفاك أسئلة

وجمعنا بعض الخطب والعيدان الطويلة وعدنا إلى المخيم من جديد.  
في ذلك اليوم الذي أطلقت الأمطار سراحنا بشكل جماعي من  
سجنها الذي كاد أن يقضي علينا لو أستمروا لعدة أيام أخرى. كذلك  
مات الطفل الذي ولد مع تباشير الصباح، ولفه والده وأقاربه بقماش  
أبيض ووضعوه في حفرة صغيرة حفرت بانتظام وعمق قارب المتر الواحد  
ثم أهيل عليه التراب، والأصح الطين (لأن الأرض كانت مشبعة بالماء  
بسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت دون انقطاع) على جسده الصغير  
والبريء كل البراءة، وبكته أمه رغم كل شيء، بل ودفن بعد إجراء كافة  
المراسيم الدينية اللازمة.

وتم ذلك المساء دفن جثمان عدة أطفال آخرين ورجل عجوز، رحلوا  
عنا وهم يرفضون الظلم والاستغلال والتشرد.

في ذلك اليوم أيضاً أيقنت أن صحبة تارا ممتعة للغاية، وإنها بدأت  
تشغل تفكيري، فاحترمتها وبدأت أهتم بها بشكل غير اعتيادي. وفي

مساء ذلك اليوم انسحبت الغيوم عن بعض أجزاء السماء فظهر لونه الأزرق الصافي الذي يبعث الراحة فينا، ويشير مواطن الخيال لدينا. وقبل المغرب من ذلك اليوم أيضاً وصلت قافلة أخرى من المواد الغذائية، وتكرر المشهد السابق بتفاصيله وبشكل أعنف، واستطاع فهمي وعمر الحصول على إحدى عشرة صمونة لينة نسبياً دون أن يلحق بهما أي ضرر، فكرمناهما بأن منح كل واحد منهم نصف صمونة إضافية. وارتفعت معنوياتنا، فقد دخل جوف كل واحد منا أكثر من صمونة ونصف خلال نصف نهار، رغم أن ذلك زاد من شهيتنا للطعام.

في ذلك اليوم أيضاً زارتنا عمتي الصغيرة بمعية زوجها وابن عمي الكبير، وجلسوا معنا نصف ساعة، وكانت عمتنا تشكي هي الأخرى من صحتها، فقد بدت لنا ضئيلة الجسم، شاحبة الوجه. وكان ابن عمي قد جلس قربي هادئاً كعادته، قوياً وخجولاً، ورغم أنه يكبرني بعدة سنوات، إلا أننا كنا دائماً نحب بعضنا وتمتد صداقتنا إلى أيام الطفولة منذ أن ولدنا ونشأنا معاً في قصر جدي الكبير الذي تم إنشاؤه بالأحجار الكلسية البيضاء وبطاقين، وكعادته حريصاً على راحتنا قال:

- هل أنتم بخير يا شفان ؟

- الحمد لله

- هل حصلتم على بعض الطعام؟

- نعم ، بضع صمونات

- نحن أيضاً

ثم قال لترمين:

- وأنت كيف أحوالك؟ لم أكن أتصور أن تصمدي وسط تلك الظروف التي مرت بنا.

فقلت نرمين:

- الحمد لله، وأتمنى أن لا تعود تلك الليالي الممطرة والباردة جداً

وقال زوج عمتي:

- إذا توقفت الأمطار، وارتفعت درجات الحرارة، ستبرز مشكلة الحصول على الماء، فالمياه المتوفرة هنا لن تلي حاجة هذا الجمع الغفير.

فقال صالح:

- علينا أن نحاول تنظيم بعض الأمور، إذا قدر لنا أن نمكث هنا مدة طويلة

وقال فهمي:

- إننا بحاجة إلى تنظيم ومسؤولين للسيطرة على المعونات وتوزيعها بشكل عادل، فقد رأينا ما حصل مع القوافل التي وصلت اليوم، وسيموت الضعفاء من الجوع، لعدم استطاعتهم خوض ذلك الصراع الضروس من أجل الحصول على الطعام.

فقال عمر معلقاً:

- لن ينفع معنا أي شيء، فنصفنا جاهل، والباقي قد حوله الجوع إلى وحش جائع، يجب جنونه بمجرد أن يرى الطعام

وقالت عمتي:

- ماذا سمعتم، هل سنبقى هنا طويلاً؟

فقلت:

- لا أعتقد أن أحداً هنا يعرف الإجابة الصحيحة، وبضمنهم أفراد القوات المسلحة التركية

ثم همس ابن عمي في أذني:

- من هذه العائلة التي معكم؟

- انهم أقرباء أحد أصدقاء فهمي من (مانغيش)، وقد طلب منا الاعتناء بهم

ثم غادر زوارنا المخيم وطلبوا منا أن نتصل بهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فشكرناهم فأنصرفوا.

جاء الليل، وأوقدنا النار كما فعل كل مخيم على ذلك المنحدر الذي دخل التاريخ، فكان مرة أخرى منظرًا فريداً من نوعه، حيث ألوف النيران كانت تتصاعد ألسنتها إلى السماء، فامتلاً المكان بالحرارة والضوء، وكان التنقل بين المخيمات والتحرك هنا وهناك بعيداً عن المخيمات أيضاً سهلاً، وتحلق الناس حول النيران يرتبون أماكن النوم، وتخفيف الملابس والأغطية، وكان البعض قد استولى على كمية كبيرة من الطعام، فجلسوا لتناول طعام العشاء، وكان فهمي قد ملأ الوعاء البلاستيكي بالماء من العين الوحيدة قرب الوادي الكبير، بالتدافع مع الناس الذين يصعب طرح مفاهيم النظام والعدل والصبر عليهم.

جلسنا قرب النار، وطلبت مني سميرة أن أتفقد الطفلين، فقد كانت قلقة على أحوال يونا الصغير الذي كان مضطجماً على ظهره أكثر

الأوقات، وكانت تارا جالسة قربہ تمسح جبهته براحة يدها بحنان،  
وقالت:

- أظن أن حرارته مرتفعة قليلاً

وعندما تفحصته، قلت لها:

- نعم قليلاً، لا تقلقي، ليس في وسعنا عمل شيء غير الانتظار  
لعلهم يسمحون للمرضى بالذهاب إلى (چهل) أو وصول الفرق  
الصحية، علينا أن نسقيه الماء، لأنه يفقد سوائل كثيرة.

كانت ظروفنا الصحية سيئة، ورائحة أجسادنا التي مضى عليها قرابة  
أسبوعين دون استحمام، وكان بعض الناس الذين التقينا بهم تفوح منهم  
رائحة كريهة نتيجة الإهمال بسبب الظروف القاسية وقلة الماء أصلاً.

وكانت تارا تلك الليلة وعلى ضوء النار في حالة ممتازة، فقد غسلت  
وجهها وسرحت شعرها الجميل، ورتبت ملابسها وتلون وجهها بلون  
أحمر من جراء انعكاس ضوء النار المشتعلة قربنا، وكنا جميعاً قد اتفقنا أن  
نغسل أرجلنا وجواربنا.

وقلت لتارا:

- كيف حالة گورگیس؟

- انه أفضل حالاً

نمنا تلك الليلة دون إنشاء سقف بناء على طلب الأكثرية فقد كان  
الجو لا ينذر بسقوط الأمطار، ورغم ذلك فقد وضعنا الأعواد الخشبية  
والحبال للطوارئ. وعدنا إلى الترتيب السابق؛ بطانيتان فرشتا بشكل  
عرضي جنباً إلى جنب، وفي أحد الأطراف تبدأ سميرة ثم طفلاها فتارا

ونرمين وعمر وصالح وفهمي وأنا على الطرف الآخر، واستعملنا ثلاث بطانيات كغطاء، اثنتان للنساء والأطفال وواحدة لبقية الأربعة، وامتدت سهرتنا وكذلك فعل معظم الناس إلى قرابة منتصف الليل.

ازدادت تلك الليلة أخبار كارثتنا المفجعة لتشمل أرجاء المعمورة، وتصدرت نشرات الأخبار، بشكل يبدو فيه وكأن مأساة هذا الشعب الذي لم يرحمه ولم ينصفه أحد على مر التاريخ الطويل قديماً وحديثاً قد بدأت بترك تأثير ايجابي يعطي الامل بنتائج تصب في مصلحتنا.

في صباح اليوم التالي استيقظنا على أصوات الناس من حولنا وحركتهم، فقد وصلت قافلة المواد الغذائية، وهرع الناس لعلهم يحصلون على شيء من الطعام، وكان فهمي وعمر يركضان مع الناس إلى أسفل المنحدر حيث وقفت عدة سيارات، ورغم أن الجنود الاتراك منعوا الناس من الصعود على ظهر السيارات هذه المرة، وكانوا يرمون أكياس الصمون والمواد الأخرى على ذلك الحشد الهائج من الناس الذين أحاطوا بالسيارات بشكل حلقات متداخلة في كل الاتجاهات لتصيب أكبر عدد من الناس، غير أن ذلك الأجراء لم يكن صحيحاً أيضاً، فقد حصل على الطعام من كان قوياً يدفع الناس ويحاول المستحيل للاستيلاء على أكبر كمية ممكنة من الطعام، أولئك الذين أسماهم عمر(بتجمع أهل العضلات القوية)، كان المشهد بائساً وبقي الناس بدون طعام غير فئة قليلة، والسبب الرئيسي هو شحة الكمية مقارنة بعددنا الهائل، فمئات اللوريات لم تكن لتسد جوعنا ذلك اليوم. وعندما انتهت تلك المعركة وعاد فارسانا دون أن يحصلوا على شيء رغم اللكمات والضربات التي تلقاها أثناء الصراع. وكان فهمي متألماً من جراء سقوط أحد الأطفال

تحت أقدام الناس، ويعتقد أن جمجمته قد تھشمت!، ولا يعرف شيئاً عن مصيره.

وقالت لهما نرمين:

- لا بأس عليكما، لا تقلقا، سيكون بمقدورنا تحمل الجوع

وقالت لهما تارا:

- ما الأخبار؟

فقال عمر:

- سمعنا أنه سيسمح لبعض المرضى بالتوجه إلى مركز القضاء (چه لي)

فقالت نرمين:

- سوف أذهب أنا مدعية المرض

فقلت لها:

- لماذا؟

- يجب أن أستحم، فلم أعد أطيع جسدي

- أين تستحمين؟

- سأطرق باب إحدى الدور، انهم أكراد مثلنا ولا بد أن في قلوبهم

رحمة، وربما هناك حمامات عامة للنساء، من يدري؟

وطلبت سميرة أن تذهب معها، وكذلك فعلت تارا.

فقال فهمي:

- لا نستطيع الموافقة على هذا الطلب

فقلت نرmin:

- ماذا تقول أنت يا شفان ؟

- حسناً سأذهب معكن إلى النقطة التركية لأستطلع الوضع، وربما أوافق هناك

وهكذا ذهبنا نحن الأربعة، ووجدنا أن الأتراك يسمحون لبعض المرضى بالذهاب، وحاولت أن أشرح لهم بما أعرفه من الكلمات التركية بأن سميرة مريضة للغاية، ولا تستطيع السير وحدها ويجب أن ترافقها أختاها، وكنا قد درنا سميرة لتجيد دور المريضة، من تلقينها لبعض التأوهات، ورتبنا هيئتها لتخدم الدور، وفي الأخير وافق الضابط التركي قائلاً وباللغة التركية:

- حسناً النساء فقط، أما أنت فعد إلى المخيم

وعدت إلى اخوتي والأطفال، كان الجو مشمساً أكثر الأحيان، والبرد معتدلاً يمكن احتماله. وامتلاً المكان بالحركة من غير هدف ، وتزاحم الناس على الماء.

في المخيم عاتبني عمر بقوله:

- كان عليك أن لا توافق على ذهابهن لوحدهن

- لا تخشى شيئاً، لقد ذهب العشرات، وقسم منهم نعرفهم، وسيكونون معاً في الذهاب والعودة. ثم أن مسألة الاستحمام أصبحت مشكلة كبيرة وخطيرة بالنسبة للجميع.

جلست مع اخوتي ندخن السجائر التي هي الأخرى أصبحت على وشك النفاذ، لم يكن أحد منا يرغب في الكلام، حتى أن فهمي عاد

واستلقى على ظهره، وأظنه تمنى تلك اللحظة أن تهبط عليه عدة صحف قديمة ليقرأها سطرًا سطرًا ولمرات قضاء للوقت كعادته عندما يلجأ إلى الصمت كلياً.

أما أنا فقد مشيت إلى مرتفع قريب وأخذت أتطلع إلى الطبيعة التي أحبها وإلى الجبال التي أعشقها من حولنا وعلى امتداد البصر، ولأول مرة شعرت بالوحدة واكتشفت أن ذلك يعود إلى غياب تارا، فاحترت بين أن أبذل تلك الفكرة وبين أن أطلق العنان لمشاعري، وسألت نفسي: يمكن لمثل تلك المشاعر النبيلة أن تجد لها مكاناً وسط تلك الظروف غير الطبيعية حيث يتعرض الإنسان إلى أبشع أنواع الحرمان والضغط النفسي دون أن يرتكب ذنباً؟ وكعادتي أنحاز عقلي إلى الاحتمال الثاني، فذلك يتناسب مع أخلاقياتي واتجاهاتي الفكرية، فقد اعتدت أن أختار ما تمليه علي نفسي وما يرضاه ضميري قدر المستطاع دون أن أكرث لرأي الأكثرية، لأن مسألة إرضاء الناس فكرة عقيمة وتشد الإنسان إلى الوراء وتجعل تقدمه بطيئاً، وبالتالي فإن ما ينجزه ويحققه ويدعه يصبح شيئاً ليس له شأن؛ لذلك فقد اشتقت إلى تارا بمجرد غيابها عني وأدركت أن وجودها أصبح ضرورياً بالنسبة لي، ويخفف عني كل ما كنا فيه دون الناس.

قرب مخيمنا كانت أسرة صغيرة تتكون من أب شاب وزوجة وثلاثة أطفال وأخت شابة تدعى فاطمة، وكانت تربطنا بتلك الأسرة صلة قرابة من بعيد، وكانت بقعة الأرض التي تم اختيارها لتكون مخيماً لهم تبعد عنا عدة أمتار فقط، وكنا نسلم على بعضنا ونسأل عن أحوال بعضنا البعض بشكل رسمي، وكانت فاطمة متوسطة الجمال، وعلمت من عمر الذي

كان يدي إعجابه بها على سبيل المزاح، إنها من حملة شهادة البكالوريا العامة، وموظفة في دائرة البريد، أما أخوها فكان معلماً في إحدى الأحياء الشعبية في مدينة دهوك.

بالرغم من تحسن الأحوال الجوية فقد زادت نسبة المصابين بالأمراض، وتدهورت صحة الضعفاء من الناس وبخاصة الطاعنين في السن والمصابين بأمراض القلب والسكري وارتفاع ضغط الدم، وزاد عدد الوفيات أيضاً.

كانت الحياة هناك سجنًا مفتوحاً، فليس هناك عمل منتظم تؤديه، ولا مواد غذائية لتتسلى ونقضي الوقت بأعداد الطعام، ولم نكن في حالة نفسية مقبولة لنجتمع ونمارس بعض الألعاب، إضافة إلى أننا لم نكن نعرف شيئاً عن وجودنا في ذلك الوادي والسفوح في العراق، ورغم أن الأمطار قد توقفت إلا أن البرد لم يزل شديداً في الليل وفي الصباح. في ذلك اليوم أشرقت الشمس ونعمنا بالضوء والحرارة نسبياً. وكنا نعرف أن جهة إلى منطقة جبلية، فقد يصل ارتفاع القمم الجبلية حولنا إلى ألفين من الأمتار فوق مستوى سطح البحر، وتلك المناطق الجبلية تتصف بالبرودة حتى في الصيف وبخاصة في الليل وفي الصباح.

كان الوقت عصراً حينما عادت نرmin وسميرة وتارا من رحلتهم، عدن وقد تبدلت هيئتهن كلياً بعد الاستحمام، يبشرتهن البيضاء، وملابسهن النظيفة وشعر كل واحدة منهن النظيف والمسرح. وبدت تارا أجملهن في نظري، كانت شيئاً ذلك العصر وسط الجبال بحيث تركت في ذاكرتي ذكرى أحملها معي بقية عمري، وعندما وصلنا المخيم سلمن

علينا، وكانت معهن خيمة صغيرة وصفيحة دهن نباتي زنة عشرة كيلوا  
غرامات وكمية من المعكرونة. ووسط فرحتنا جميعاً، قالت نرمين:

- كيف يبدو منظرنا الآن يا أخوان؟

فقلت:

- في أحسن حال

و قال عمر مازحاً:

- نحتاجون الآن إلى حراسة مشددة

و قال صالح:

- نعيماً حمامكن

و قال فهمي:

- أين أخذتم الحمام؟

فقلت نرمين:

- عند عائلة كوردية كريمة, رحبوا بنا كثيراً وجهزوا الحمام, وقدموا لنا  
غذاء فاخراً. تصوروا كان غذاءنا الرز والمرق ونخبز حار ولبن ثم شاي  
ساخن، وقدموا لنا الدهن والمعكرونة وصحناً من الألمنيوم وثلاث ملاعق  
طعام وطلبت منهم بعض الملح وكمية من البصل.

فقلت:

- انه إنجاز مميز ما قمتن به اليوم

و قال عمر:

- والخيمة (وكان يتفحصها) إنها جديدة وممتازة

و في تلك الأثناء جاءت فاطمة وزوجة أخيها، تسألان النساء عن رحلتهم مبهورتين بمظهرهن الجديد، وكانت المقارنة بين نرمن وتارا وأختها والفتاتين الزائرتين بائساً للغاية.

في الحال أمرت أخوتي أن نعد مستلزمات نصب الخيمة، فوزعت الأعمال بيننا حيث طلبت من فهمي وعمر محاولة الحصول على آلة حادة من أحد المخيمات لإحضار الأوتاد اللازمة، وشرحت لهم مواصفات تلك الأوتاد الخشبية، وكذلك محاولة جلب بعض الحطب. وقمت أنا وصالح بقلع الأحجار وتسوية الأرض و باشرنا بالعمل وأبت تارا إلا أن تشاركنا. فقلت لها:

- عليك بالراحة، فلا بد أنك تعب من الرحلة، ومنظرك جميل، وسوف تتسخ ملابسك النظيفة.

فقلت هامسة مبتسمة:

- هل أبدو جميلة؟

فقلت لها:

- أجل، لقد تحسن شكلك ومظهرك كثيراً

و كانت قد وضعت الكحل الأسود في عينيها الواسعتين الجميلتين، وقليلاً من أحمر الشفاه على وجنتيها البارزتين وعلى الشفاه. فرحت تارا بذلك الإطراء واحمرت وجنتاها وأطرقت رأسها.

عندما عاد فهمي وعمر، نصبنا الخيمة بشكل محكم، وتم غلقها من أحد الأبواب، وطمرنا جانبيها بالتراب، ثم حفرنا حولها خندقاً ضحلاً تحسباً من الأمطار. فحصلنا لأول مرة على شبه غرفة تحافظ علينا من البرد والمطر وتعتبر ستاراً أيضاً بيننا وبين الآخرين.

وتم فرش البطانيات بعد أن كنا قد فرشنا تحتها كمية من الحشيش اليابس لنخفف من تأثير الرطوبة، وكان الكل فرحين بذلك الامتياز وقتها. ثم قامت نرمين وسميرة بطبخ كمية من المعكرونة فقد كان الجوع شديداً. وحصلت سميرة على كمية من الحبوب الطبية المانعة للإسهال، وجعلت ولديها يلعان كمية منها.

وحالما ارتفعت رائحة الدهن المغلي والبصل، خرجت زوجة شقيق فاطمة وأطفالها الثلاثة يتأملوننا رغماً عنهم، فلم يدع الجوع تلك الأيام أحداً ليتذكر الوقار أو العيب. فقلت لجماعتي:

- ما رأيكم أن نقدم لهم أول صحن، انظروا إلى عيون الأطفال، لا أحتمل هذا المشهد أبداً

فقال صالح:

- هل أنت مجنون؟ أن هذه المعكرونة لن تكفيها غير نهار واحد

وقال فهمي:

- ما هذه العاطفة التي ليس لها مكان؟ لنفرض أننا أطعمنا تلك الأسرة، هناك عشرات الألوف من الناس لم يذوقوا الطعام منذ أيام

وقال عمر:

- ثم أنهم ليسوا أقرباءنا، ولسنا مسؤولين عنهم

وناديت تارا ونرمين وسميرة، وطلبت منهن إبداء الرأي فيما لاحظناه وكنا نتحدث عنه مختلفين في الرأي، وطلبت منهن اتخاذ القرار لأنهن أحضرن الطعام. فقالت نرمين بعد أن تطلعت إلى وجوه الأطفال الثلاثة ومنظرهم الذي يؤثر في الوجدان:

- لا أدري، القرار لك يا شفان ، أنت المسؤول

- وأنت يا سميرة

- القرار لك

- وأنت يا تارا

- لا أدري، أقترح أن نجتمع الأصوات

فكانت ثلاث أصوات ضد أربعة أصوات لصالح تقديم طبق واحد من المعكرونة لأسرة فاطمة. وذهبت أنا ونرمين وتارا وقدمنا للأسرة الجارة الطعام، ورغم أنهم حاولوا جاهدين عدم قبوله، إلا أن الجوع لم يكن ليرحم ساعتها، إضافة إلى جديتنا، فشكرونا وهجم الأطفال على الصحن قبل ان تغادر مكانهم. ثم طبخنا طبقاً آخر لنا، ثم ثالثاً أيضاً حتى شعبنا ولأول مرة بعد أكثر من عشرة أيام من الجوع الشديد.

عندما هبط الليل، أشعلنا النار في الحفرة التي أعدت أمام باب الخيمة وجلسنا حولها، وكنا ولأول مرة في حالة أفضل من الأيام التي مضت، فقد أصبحت لنا خيمة، وملابسنا جافة تماماً، وكذلك البطانيات الخمسة التي نشرناها أمام الشمس والهواء لطرد الرطوبة ولتعقيمها. ودارت بيننا أحاديث شتى، من مقارنة ظروفنا بالحياة التي نعيشها في المدن التي تركناها، وحول مستقبلنا المجهول، إذ كان البعض منا لا يزال يعتقد أن قوات السلطة تتعقبنا وقد تدركننا في أي وقت. فقال عمر:

- دعونا من ذلك الحديث الذي لا يجدي، واحمدوا الله على الطعام والخيمة، ولنبارك جهود النساء، نحن الآن كقبيلة من الهنود الحمر، وهنا خيمة الزعيم، ولا ينقصنا سوى بعض الريش الملون وشريط ملون وفأس

لنزين بها الرئيس ثم نبحث عن بعض الأطيان الملونة لندهن بها وجوهنا  
ونرقص رقصة الحرب حول النار على أنغام الطبول والصيحات، نرقص  
متكئين على القدم اليسرى. تصوروا منظر شفان وقد أصبح زعيماً لهذا  
الجمع الغفير من الناس!

وقال فهمي معلقاً:

- أجل أنه يصلح لتلك الأدوار سيما أنه كان عصر اليوم إنسانياً  
للغاية، وعطف على الأطفال الجوع  
فقاطعته نرمين ضاحكة:

- على الأطفال فقط؟

فقال عمر ضاحكاً:

- وعلى عمة الأطفال أيضاً!

فشعرت بالخرج ولم تستحسن تارا ذلك المزاح، كان ذلك واضحاً على  
وجهها ونظرات العتاب في عينيها الجميلتين.

وقال صالح معلقاً:

- الشعور الإنساني شعور نبيل، وبخاصة في ظروف مثل ظروفنا  
الحالية

وأخيراً تكلمت أنا، فقلت:

- إن ظروفنا الحالي، مناسب جداً ليثبت فيه المرء انه لم يتخل بعد عن  
إنسانيته، وليس أدل على إنسانيتنا أكثر من التضحية لأجل الآخرين،  
وتعلمون جميعاً أجر إطعام الجائع عند الرب.

ذلك اليوم السعيد نسبياً لم تكن مجموعتنا الوحيدة التي حصلت على خيمة، فقد رأينا في العصر عدة خيم أخرى قام أصحابها بنصبها مثلما فعلنا نحن. كذلك لاحظنا ازدياد عدد الأطفال الذين توزعوا بين المخيمات طلباً للطعام، كان أغلبهم رث الثياب، حفاة الأقدام، أشعث الشعر، اتسخت ملابسهم وأجسادهم بسبب عدم إمكانية الاستحمام. وكان أغلبهم يقولون:

- نحالة أو نحال، هل لديكم بعض الطعام؟ أي شيء، أية كمية، وتمتد أصابعهم لتحك فروة الرأس.

وعندما كانت نرمين وتارا تعدان المعكرونة مر بنا عدد من الأطفال على شكل وجبات وطلبوا منا طعاماً، فقال لهم صالح:

- ليس لدينا طعام، أذهبوا إلى أهاليكم

وظل طفل صغير يحدق في الإناء وهو على النار، وينظر إلينا لا يود أن يبرح المكان. وقالت طفلة لعمر:

- أعطوني فقط ملعقة واحدة.

في تلك الليلة ناقشنا ذلك المشهد أنا وأخوتي ولم نستطع الاتفاق على رأي موحد، وأستحوذ ذلك المشهد المؤلم على خيالي، وسبب لي أرقاً حاداً، خلالها كنت أرى عيني تلك الطفلة البائسة التي لا أعرفها تحملق في كل ركن من أركان الخيمة الجديدة وسط الظلام الدامس. ثمنا تلك الليلة دون أن نطبخ شيئاً من الطعام للعشاء؛ فقد قررنا الاقتصاد في الطعام الذي كان لدينا.

وفي داخل الخيمة، افترشنا الأرض كالجنود، على شكل طابور طويل وفق التسلسل السابق، وبالرغم من برودة الجو إلا أن داخل الخيمة كان دافئاً نسبياً بعد أن أغلقنا الباب، وكنت الأخير قرب الباب، ولاحظنا تلك الليلة أن سميرة وأختها شعرتا بالإحراج ولأول مرة، مع أن الذي تغير فقط وجود خيمة تلمنا وتسترنا وتعزلنا عن الناس. وقال عمر بعد أن اكتشف عدم استطاعة النوم:

- ماذا بك أيها الزعيم؟ هل أنت بخير؟

- لا شيء، أنا بخير. كل ما هنالك أن الوقت لم يزل مبكراً بالنسبة لموعد نومي، فأنا كثير السهر كما تعلم

- والله بت أخشى عليك من القضايا الإنسانية، ألا تستطيع التفكير في نفسك فقط؟ أو على الأقل في مثل هذه الظروف

فقال فهمي وهو يفاجئنا:

- ليت تلك القضايا الإنسانية تستحق كل هذا السهر والأرق، إنها حتى لا تملك أية مساحة من الجمال

فقلت نزمين:

- عن ماذا تتكلمان؟ دعا الرئيس في حاله

فقال فهمي وعلى الفور:

- عن الإنسانية والمعكرونة والتضحية

فأنفجر الجميع بالضحك إلا تارا وأختها، وأغلب الظن لم تفهم سميرة شيئاً، أما تارا فرمما اكتفت بأن ابتسمت أو ضحكت مع نفسها.

فقلت لهم:

- إنني أمركم بالنوم ويجب أن ينقطع الكلام

فقال عمر:

- هل هناك قانون يمنع الشعب من الكلام؟

كان اليوم التالي من أجمل الأيام بعد تلك الأيام السابقة التي قضيناها في الطريق وفي جلى، حيث كانت الشمس ساطعة، وشعرنا بالدفء، وبدأت الأرض تجف شيئاً فشيئاً، وظهرت بعض مظاهر الربيع من العشب الأخضر وانتفاخ البراعم على أغصان الأشجار، وتلك الطيور الصغيرة الجميلة ذوات الأذيال الطويلة وألوانها أبيض وأسود أو وجود عدة ألوان أخرى كانت تخط هنا وهناك على الزبال ومخلفات الناس وهي تصدر أصواتاً مميزة ورقيقة، إضافة إلى الغراب الصغير.

ومضت الأيام على ذي الحال، وتبين لنا أن تلك المنطقة الجبلية ستكون محلاً لأقامتنا إلى أجل غير مسمى. وأستمر تدفق المساعدات الغذائية على مخيمنا، وزاد عدد السيارات التي كانت تصل مرة أو مرتين في اليوم، وتمكننا من الحصول، وبخوض ذلك الصراع الذي لم يخف، على المواد الغذائية المختلفة التي كان يتم خزنها، وتستعمل تحت رقابة صارمة، كذلك استطعنا الحصول على صفيحة فارغة كبيرة وأخرى صغيرة، قمنا بتسخين الماء للإستحمام نحن الرجال والأطفال. أما اللحى فكانت طويلة ويشاركنا في ذلك كل رجال المخيم. وفي أحد الأيام تمكنت عائلة فاطمة من الحصول على خيمة صغيرة أيضاً، وقمت أنا بالأشراف على نصبها لقلّة خبرة أخيها وجهله التام بنصب الخيم.

وخلال تلك الأيام المشمسة الجميلة وزيادة عدد قوافل المؤن الغذائية، نسينا بعضاً من آلام الأيام العصيبة التي كنا فيها نرتجف تحت البطانيات المبللة بالماء حتى الموت، حيث كان البرد سكيناً حاداً يلدغ أجسادنا.

وازداد تقاربنا أنا وتارا، وكانت تتحدث بحرية وتسألني أسئلة كثيرة حول مختلف شؤون الحياة وعن الحب والزواج والطريقة المثلى في فحص ثم اختيار العريس. ولاحظت أنها تحاول أن تكون قريبة مني دون أن تكثر لوجود الآخرين، وكذلك فعلت أنا، حتى بات معلوماً لدى الجميع أننا أقرب الناس إلى بعضنا، دون أن يحاول أحد من أخوتي أو אחتي إبداء شعورهم على شكل منهج كلامي.

وكانت أسرة فاطمة تزورنا ونزورهم لهذا السبب أو ذاك وبخاصة النساء. ولاحظت أن تارا لا تستحسن سلوك فاطمة وعجفرتها، كذلك هي من جانبها كانت تكتفي بأداء واجبات التحية والحيرة مع تارا بشكل رسمي فقط. حتى أن تارا عبرت عن رأيها أكثر من مرة في شخصيتها الغريبة وحبها لفرض آرائها وطباعها على الآخرين.

كان صباح يوم السابع عشر من نيسان يوماً حاسماً في حياتي أنا وتارا، يوماً نحمل ذكراه معنا باعتزاز ما تبقى لنا من العمر. كان يوم الحب، يوم رد فعل إيجابي شجاع للظروف التي كنا نمر بها. فبدلاً من أن ننضم إلى ذلك الجمع الغفير من الناس الذين اتخذوا من الشكوى وسرد الحوادث وأخبار الموت والمرض والجوع والخوف من كل شيء، التجأنا أنا وهي إلى الحب لنظهر به نفسينا ونغذي روحينا بعاطفة نبيلة واعية

تطلبت منا الكثير من الشجاعة وروح المغامرة لإظهارها وصيانتها، تلك العاطفة التي نبحث عنها نحن البشر على اختلاف طبقاتنا ومستوى وعينا أو أعمارنا طول العمر.

وكانت فاطمة سبياً في أن تتفجر تلك العواطف وتخرج وتتحرر من عقالها دون أن تدري هي ما فعلت ولن تعرف ذلك أبداً. ففي اليوم الذي سبق ذلك اليوم لاحظنا أنا وتارا بعض الصخور المزروعة في التراب كانت تعيق سيرنا في المسافة التي تفصل مؤخرتي خيمتنا نحن وعائلة فاطم.

وكانت مؤخرة خيمتنا قد تراخت بسبب ميل بعض الأوتاد، فقررنا أن نعالجها ونقلع تلك الصخور. غير أن الذي حدث صبيحة ذلك اليوم كان حادثاً عرضياً قامت فيه فاطمة بإسداء خدمة العمر لنا أنا وتارا، كانت السبب في أن نعترف لبعضنا بالحب الذي كان ينمو بشكل سريع خلال تلك المدة القصيرة وكنا نكتمه من حيث لا ندري، ربما بسبب الفروق العديدة التي بيننا، من فرق العمر واختلاف الدين وجملة من الأمور الأخرى، وإن حباً من ذلك النوع الذي ربطنا كان يلزمه عشر سنوات لتتعرف فيها على بعضنا ونمتحن بعضنا البعض من خلال الأحاديث والمواقف والعمل المشترك.

الذي حدث هو أن الجو كان مشمساً ودافئاً، وتناولنا طعام الفطور وكان شيئاً بسيطاً، ولا أدري أين ذهبت تارا بعد ذلك مباشرة، وتفرق أخوتي من حولي كذلك قامت نرmin بزيارة عماتي وأولاد أعمامي، أما سميرة فقد أخذت طفليها بعيداً عن المخيم، ربما ليقضيا حاجتهما، أو لمجرد المشي والتريض وتغيير المكان. وبدافع من حرصي الشديد على

ترتيب واصلاح الأشياء بدأت بقلع الصخور، وكنت قد نسيت لحظتها اتفاقنا أنا وتارا مساء اليوم السابق، بل لم أحمله محمل الجد كما فعلت تارا، وذلك ما اكتشفته بعد الحادث.

وعلى أصوات ضرب الصخور ببعضها لتسهيل عملية القلع جاءت فاطمة نحوي وألقت تحية الصباح، ثم عرضت خدماتها لمساعدتي، ورحنا نقلع الصخور معاً ونرميها بعيداً عن الخيمتين، ونسوي الأرض، ثم أصلحنا من شأن الخيمة، وذلك بقلع الأوتاد وتغيير مكانها وشد حبالها من جديد، وكنا على وشك أن نفرغ من العمل عندما أقبلت تارا، وذهبت إلى داخل الخيمة، وبعد أن فرغنا من العمل ذهبت فاطمة وعدت إلى الخيمة، فوجدت تارا بحالة لم أعهد لها سابقاً، كانت بادية الغضب، ممتعة الوجه، تنفجر غيضاً، وعندما دخلت الخيمة خرجت هي على الفور دون أن تنظر إلي، ووقفت على بعد خطوات من خيمتنا تنظر إلى الجبال حولنا. وكانت تلبس بلوزة بيضاء طويلة الأكمام أبيض ومخططة بالعرض بعدة خطوط من اللون الأخضر الفاتح والأصفر الفاتح ذات الصوف الخفيف وهي تعقد يديها أمام صدرها، وتغير من مكان قدميها بين الحين والحين، ولم تدع لي فرصة لأكلمها، كان تمردها وموقفها واضحين على وجهها طيلة ذلك اليوم وكذلك في الليل الطويل الذي دخلت بين أحضانه في نقاش لا ينتهي مع نفسي عن سبب تمردها وبتلك الحدة.

وفي لحظة من هبات القدر قررت أنني أحبها كثيراً، وأتذكر لحظتها أن كل هموم العالم انزاحت من فوق صدري وأنا مستلق على ظهري داخل الخيمة في الساعات المتأخرة من تلك الليلة، وبأن شيئاً ثميناً دخل نفسي

وأستحوذ على قلبي وانتشله من وحدته الأزلية، وبأن كل ما تعرض له قلبي من تيارات عاطفية سابقة كان شيئاً تافهاً ووهماً موروثاً، وغزت خيالي سعادة لا توصف، وشعرت بالانتصار وبأنني وجدت فجأة شيئاً ثميناً لا يهتدي إليه كل الناس، وبأن تلك المشاعر الصادقة مست الروح والعقل والوجدان فظهرت كل شيء في طريقها، ولو كنت قادراً على التعبير بشكل أفضل، لكنت وثبت من مكاني وملأت الوادي الكبير بصيحة خالدة، عظيمة، توقظ كل الناس ليشهدوا على ولادة ذلك الحب العظيم، دون نخجل أو حياء، فالحب راحة تغمرنا، ونعمة لا تصيب كل الناس، وهو منهج متكامل سام ليس فيه عيب أو نخجل، وتلك المشاعر الرفيعة موسيقى تملأ الكون سلاماً، ولحن يرفعنا إلى السماء !.

ولا بد أن تارا هي الأخرى كانت مستيقظة فقد سمعت صوتها وهي تسعل عدة مرات، وأيقنت أيضاً أنها تبادلني الحب، ولا أدري لماذا لم يمر في ذهني أي سبب آخر لموقفها الصارم صباح ذلك اليوم الجميل. لم أثب واقفاً على قدمي فجأة تلك اللحظة، ولم أبحرأ على أن أقف على صخرة ووجهي إلى ناحية الوادي وأصرخ صرخة عظيمة تشق ذلك السكون المطبق، وفي ضوء القمر، صرخة تدوي طويلاً، بل غمرني هدوء وصفاء وراحة كبرى، وامتألت نفسي بعاطفة تكفي الكون، وأخذت أهمس باسمها تارا... تارا رغماً عني وأنا أحس لأول مرة في حياتي بالحب الحقيقي الذي يسمو فوق الماديات، وبالسعادة، ذلك الوهم السحري الذي نبحت عنه جميعاً ونفعل المستحيل فلا نجده.

في صباح اليوم التالي جلسنا لتناول طعام الفطور، وكان عبارة عن قطع من الصمون والبسكويت وبعض الحليب، وكانت تارا مطرقة الرأس وتتحاشى أن تلتقي عيوننا، صامته، ووجهها يتغير كثيراً عندما تتألم من

شيء، ولكنها رغم ذلك بدت لي جميلة، نظرة يبشرتها البيضاء، ويديها وأصابعها الرشيقة، تلك اليدين اللتين كنت أقبلهما بنهم كل يوم تقريباً فيما بعد إلى أن فرقنا الزمن. حتى أن أختها سميرة تكلمت معها بضع كلمات بلغتهم، فأجابتها بكلمة واحدة دون أن ترفع رأسها عن الأرض، وقالت لها نرمين:

- ما بك يا تارا؟ أنت متأمة من شيء ما

فقلت بصوت هادئ:

- لا شيء، عندي صداع، فلم أنعم بالنوم ليلة أمس بسبب الأرق كانت تارا تبدو متأمة فعلاً، أما أنا فقد غمرني سعادة كبرى وأصابني راحة بلا حدود، وشعرت لأول مرة بأنني يمكن أن أكون شيئاً، وبأنني صنعت شيئاً ليس باستطاعة الكثيرين الوصول إليه، وامتلاً قلبي حناناً، وغبت وانفصلت عن ذلك الواقع وتلك الجموع التي أدمنت على الشكوى ولا تفعل شيئاً، وترفض كل شيء حولها ولا تغيره، وحلقت في الفضاء أتلحف بالغيوم المسافرة أبداً دون أن تتعب كأنني في محراب وحولي الملائكة ترتل أناشيد المحبة، فنسيت الغربة، والجوع والمستقبل المجهول، وخوفنا الأزلي الذي ليس له نهاية.

وبعد أن فرغنا من تناول الطعام، راحت تارا تلهي نفسها مع محتويات حقيبتها الشخصية، فأخرجت المرأة، وراحت تنظر في وجهها وتعديل من خصلات شعرها الجميل. وفي تلك اللحظة صاح عمر:

- لقد وصلت قافلة الأرزاق، إنها قافلة كبيرة

فأشار علينا فهمي أن يشترك أكبر عدد منا في الصراع من أجل الحصول على أكبر كمية من المواد الغذائية ولزيادة تلك الفرص. فقررت أن نشترك أنا وتارا ونرمين إضافة إلى فهمي وعمر، ومع الحماس الذي أبداه صالح وإصراره وافقت على اشتراكه معنا أيضاً، وقلت له:

- سوف تبقى مع نرمين وتارا على طرف التجمعات دون أن تخوضوا صراع التدافع والتسابق مهما كانت ظروف التوزيع. انحدروا على المنحدر نحو فسحة الوادي الرئيسي حيث كان حشد مخيف من البشر الجائع يتطلع إلى حمولة السيارات اللوري كما تتربص لبؤة الأسد فريستها وتتحين الفرصة المناسبة للهجوم. وسألت تارا في الطريق عما يشغلها، فقالت دون أن تكلف نفسها مشقة النظر إلي:

- لا شيء

- أريد أن أتكلم معك

وفي تلك اللحظة انفصل عنا صالح ونرمين ليلحقا بعمر وفهمي، فكانت لنا فرصة الانفراد ببعضنا أنا وتارا، فقلت لها:

- ماذا يؤملك؟ علينا أن نتكلم

ولما كنت واثقاً من سبب موقفها مني، رغم ذلك عدت أقول لها:

- لا أستطيع أن أراك على ذي الحال، ولك مكانة خاصة عندي

ولما آثرت الصمت أيضاً قلت لها:

- هل بسبب حادثة أمس؟ إنني أعرف ذلك

فقالت معاتبة:

- لقد اتفقنا أن ننجز ذلك العمل أنا وأنت، فلماذا قمت بإيجازه مع فاطمة؟ وأنت تعرف أنها لا تطيقني، وأنا لا أحتملها

- حسناً إني أعتذر، ولم أقصد ذلك، كل ما هناك أنني وبعد تناولنا الطعام، ذهبت إلى مكان العمل بانتظارك، ثم شرعت بالعمل وجاءت فاطمة لتساعدني، وقد تأخرت أنت.

- لقد غبت بعض الوقت، وكان بإمكانك الانتظار قليلاً، وكان هناك متسع من الوقت، ولكنك تحب المغامرات كما يبدو

- حسناً أرجو أن ننسى الأمر كما أرجو أن تعلمي بأني البارحة ولحد هذه اللحظة كنت متألماً ولم يهدأ لي بال إلا هذه اللحظة، فقالت باستحياء وقد توردت وجنتاها ونظرت إلي وعيناها تشعان ببريق لم ألقه، كانت من تلك النظرات التي يطرب لها الرجل ويشعر بالاعتزاز:

- أنا كذلك، هيا لنلحق بالآخرين

في تلك اللحظات من ذلك اليوم الذي امتلأ بالجمال والحب والحنان، كنت أرى تلك الجموع البائسة الغفيرة التي يزداد عددها حول السيارات وهي تزحف نحوها من كل صوب كأنهم يقيمون عرساً مهيباً، ويحتفلون بذكرى عزيزة، أو كأنهم وقفوا جميعاً للاحتفاء بنا أنا وتارا، ونحن نحمل لهم المحبة والسلام، القوة والأمل، الهدف وروح الكفاح. لم أكن حزيناً مثلهم ولا يائساً مثل أي فرد منهم، ولم أكن أشعر بالضعف أيضاً، بل على العكس من ذلك كنت أشعر بسعادة غامرة، وأكثرهم حباً للحياة وشعوراً بالضوء، مستمتعاً بالألوان، أماً رثتي بهواء بارد نقي.

وعندما وصلنا المكان، طلب الأتراك من جموعنا أن ننظم أنفسنا على شكل مجموعات، ليتسنى لهم توزيع الطعام بشكل هادئ وليصيب أكبر قدر من الناس، إلا أن أحداً لم يستجب بل حاول البعض الهجوم على المواد فتعرضوا للضرب، وأخيراً تم توزيع الطعام بالطريقة السابقة، واستطعنا الحصول على كمية جيدة من الطعام، حتى تارا ونرمين وصالح نجحوا في الحصول على نصيب معقول من المؤن نسبة إلى العدد الهائل لسكان المخيم. وعدنا إلى خيمتنا. وكانت تارا فرحة وقد خرجت من صمتها، وعاد وجهها الجميل إلى حالته الطبيعية، وكانت تضحك وهي تحمل عدة علب من البسكويت، حتى أن نرمين قالت لها:

- هل زال الصداع؟

فقالت:

- أجل، أجل

فنظرت إلي نرمين قائلة:

- ماذا أعطاك الرئيس؟ هل يحمل معه حبوباً لمعالجة حالات الصداع

الحادة ونحن لا نعرف؟

فقالت تارا مازحة فرحة:

- أجل، والحالات خاصة من الصداع

فقالت نرمين معلقة:

- هذا واضح، هذا شيء جديد

كانت فرحتي لا توصف عندما اكتشفت أنني أحبها، وأيقنت أنها تبادلي نفس الشعور، ولأول مرة شعرت أن الحب هو الاحترام والشعور

بالقوة وبالأمل، شعور روحي ونقي يتجاوز الغرائز، وتمنيت أن يهتدي إلى  
الحب سائر الناس. وتساءلت:

– ماذا يمكن أن يكون شكل العالم يومها؟

ومضت بضعة أيام أخرى، وبدأت قوافل كبيرة وكثيرة من المؤن  
الغذائية تدخل المخيم، ولكن الجوع الشديد وعدم التنظيم حرم منها  
أغلبية الناس، وبخاصة الضعفاء منا، ولم تنفع صيحات ونداءات القوات  
التركية، أو المصلحين من طرفنا في كبح هيجان الناس وتدافعهم  
وصراعهم على المواد الغذائية، وقلة تلك المداد الغذائية أصلاً كان سبب  
المحنة.

أما أنا وتارا، فقد توطدت علاقتنا يوماً بعد يوم، وكثرت اللحظات  
التي ننفرد فيها ببعضنا دون أن نبالي برأي الآخرين. وكنت أسمعها أجمل  
وأرق الكلمات. واتفقنا أن أجمل لفة تقال بها كلمة احبك هي اللغة  
الفرنسية (ژوتيم) والتي استعملناها حتى ساعة الوداع، يوم أصبح ذلك  
اليوم أصعب لحظات الزمن في حياتي، بالرغم من أننا كنا قد أعددنا  
نفسنا جيداً، غير أن الوداع أقتلع كل الواقع، وضرب ضبط النفس  
والشجاعة عرض الحائط. وكنا نتناقش في شتى المواضيع، وتسألني مئآت  
الأسئلة حول شؤون الحياة والعلاقات الاجتماعية، وتركز كثيراً على سلوك  
المرأة وزينتها، وإطارها الخارجي، وتسألني ماذا أحب في المرأة، وكيف  
أحبها أن تبدو به من مظهر عام. وكانت تستمع إلى كلامي باهتمام،  
وتستحسن معظم آرائني.

بالرغم من تحسن الظروف الجوية، وحصول الناس على بعض الطعام،  
والمؤن الأخرى، إلا أن الحالة الصحية للكثيرين ظلت تتحول كل يوم نحو

الأسوأ، وكانت حالات الإسهال الشديدة تهدد حياة الأطفال بشكل خاص، ومن أسباب ذلك مياه الشرب وضعف أجسادنا والنظافة، واستحالة تنظيم حياتنا بشكل أفضل؛ لإنعدام الشروط اللازمة والأدوات المطلوبة. فشحة المياه منعتنا من الاستحمام، وكنا في العراء بشكل بدائي لا يصدق، ولا نملك أية أدوات، تساعدنا على أن نشعر بانتمائنا إلى أواخر القرن العشرين.

ولكننا كنا نحمل معنا خبراتنا المتنوعة والمتباينة والتي لا تصنع شيئاً في تلك الظروف. لقد عشنا سنين طويلة في ظل نظام وظروف عامة تم فيها تجميد الفكر ومحاربه بشكل منظم ومدرّوس منذ أكثر من عشرة أعوام، عندما تم أحياء الغباء والتخلف والانتماءات العقيمة، وتسيّد سوح العمل والابداع بمجموعة منتقاة من الأغبياء الذين ليس لهم صلة بالعصر؛ فإنعدام التنافس الحقيقي في ساحات العلم والفن والأدب والسوح الأخرى (وإستمر ذلك بعد حرب الخليج الثانية حيث تم تدمير كل شيء)، لذلك هجر الناس قراءة الكتب وعزفوا عن ممارسة الفنون والآداب، لتخلو الساحة لأصحاب الطبول وعديمي الذمم الذين صفروا تلك النشاطات وسفهوها بشكل مقرف، مما لم يحصل في أي زمن آخر لأي مجتمع بشري. وتساءلت يوماً:

- كيف تكون الحياة لو قدر وأن تعرض المجتمع البشري إلى كارثة كونية أو عالمية، وتم فيها تدمير الآلة كلياً، هل يعود الإنسان إلى العصور الحجرية، أو الرعوية الزراعية في أحسن الأحوال؟

في تلك الأيام، حيث كنا نعيش في الثلث الأخير من شهر نيسان، كنا ننعم في الليل بضوء القمر الذي كان يضيفي إلى علاقتنا أنا وتارا

الشيء الكثير من الشاعرية، ويطلق العنان لتوغلنا في دهاليز الخيال  
لتنسج الأحلام الوردية وكلها وهم يمسحه ضوء النهار، وننتج الوف  
الكلمات تمجد الحب وروعة فكر الإنسان، لا يثينا عن ذلك كل ما  
كان حولنا من أزمت وألم لا يطاق.

ففي حين كان الناس يرتجفون رعباً من تكرار مشاهد الموت والدفن،  
وحالات الجوع القصوى والأمراض، كنا أنا وهي نعيش عالمنا الخاص  
ونقترب من بعض أكثر، حتى أصبحنا روحاً واحدة تعيش في جسدين  
فوق أرض (چه لی) الجبلية التي تساعد على الوهم والأحلام والحب  
والحياة، والإصرار على أن لا نسقط، والقوة التي كانت تأتينا من حيث  
لا ندري، وراحة البال ونحن لا نعمل، وهدوء الأعصاب وكل ما حولنا  
بائس يشد الإنسان للوقوف في متاهات المقارنات التي تذيق الإنسان مرارة  
الوجود. وكنا نتساءل:

– هل يصنع الحب المعجزات؟

وكان صوتها الذي أحبته يردد بعدي كلمة (ژوتیم) نقولها للبعض  
بشكل همس، هي أقرب إلى الموسيقى منها إلى الكلام. ثم دخلت كلمة  
(أعبدك) حينما كانت عواطف الحب ونشوة اللقاء تغربل تفاهاتنا وتنقي  
أفكارنا، فنصبح نغمة تليق بصمود الجبال، وبحراً من الذوق والأدب  
والهدوء والجمال، حينما تحولت تارا إلى أميرة للقلب والفكر والخيال،  
وأصبحت روحاً طاهرة عشقتها بلا حدود؛ فأدركت يومها أن بهجة  
الحياة في الحب، والحب هو السعادة، وأن الإنسان الذي ليس له القدرة  
على أن يحب شيئاً بكل طاقاته لا يعدو أن يكون فرداً بائساً لقطيع يملأ  
الكون، صخباً وظلماً وفتكاً وتدميراً.

في تلك الأيام أيضاً بدأت أكره النوم لأنه يبعدني عن تارا، كما كنت أكره غيابي أو ابتعادي عن المخيم دونها، فقد أصبح وجودها معنا هي الحياة التي نحلم بها جميعاً، وأصبح النظر إليها هو الجمال بكل أشكاله، وبمقدار حيي وتعلقني بها كان ينمو في الطرف الآخر من معادلة حبنا الفراق الذي كان يهددني ويقض مضجعي كل لحظة، رغم أنني كنت أقول لها:

لقد اعتدت أن أواجه المشاكل وأعيشها لأستطيع تداركها أو حلها أو تجاوزها أو تحملها في أسوأ الأحوال. وبسبب من تركيبي الاجتماعية والفكرية، كنت أسبق الأحداث دائماً ولم أزل.

وبدأت أحس فعلاً بأنه ليس فيها شيئاً لا يعجبني قطاً، وبدأت أحس أيضاً أن حيي لها يزداد كل يوم بشكل مذهل دون إشباع. وكنا عند وجود الآخرين نلجأ إلى التعابير والأفعال الرسمية بشكل صارم مع عدم استطاعتنا إخفاء الاحترام لبعضنا البعض الذي كان الدليل الحاسم والأوحد على الحب، وذلك ما تعلمناه معاً أنا وتارا من حبنا الطارئ الكبير.

وفي غضون ذلك تحسن حالنا بعد أن اعتدنا حياتنا الجديدة، وازدادت قوافل المؤن والاهتمام العالمي الذي بدأت تظهر نتائجه، حيث بدأ الحلفاء برمي المساعدات عن طريق الجو كجزء من حملة الإغاثة الشاملة التي بدأت بها الطائرات الأميركية والتي كانت ترمي حمولات من أثين إلى ثلاثة أطنان من المواد الغذائية وأغطية وخيم عن طريق المظلات.

وكانت المواد الغذائية معلبة بشكل عبوات فردية صغيرة، تحتوي على الحليب الجاف والبن السريع التحضير وأنواع من البسكويت والسكر وعلب الكبريت الخشن وخيم متنوعة الحجم وحقائب النوم والبطانيات وعشرات من المواد الأخرى. وفشلت تلك الحملة أيضاً بسبب من تنظيمنا السيئ وعدم وجود خطة، وسقطت بعض الحملات على خيم مأهولة باللاجئين وقتلت بعض الأفراد. وفي تلك الفترة الزمنية تم تقسيم المخيم إلى مجموعات بشكل عشوائي، وتم الاتفاق عن طريق الحلفاء والسلطات التركية على أن ترمى تلك المظلات خارج المخيم لتفادي الحوادث المؤسفة، أي في المناطق الخالية من الناس.

وبدأ ما أسميناه (صراع الغابة) حيث يأكل القوي الضعيف، وظهرت (تكتلات العضلات والأفراد) حيث كانت تسقط بعض المظلات خارج المخيم بمسافة ميل واحد ويتسابق الناس نحوها، ويستغرق ذلك أحياناً حوالي نصف ساعة للوصول إلى العبوة، بسبب وعورة الأرض، وعندما كنا نصل هناك نجد أن جماعة قد وصلت قبلنا، وتم فتحها وتقسيم كافة المحتويات فيما بينهم، وكان التسابق نحو مظلات الأغذية صراعاً مشروعاً من أجل البقاء، وعلى أسلوب حياة الغابة.

ومضت الأيام أيضاً، وكان وضعي النفسي مرضياً، ممزوجاً أيضاً بقلق حملته معي منذ نعومة أظفاري، وخوف يتعاظم لصالح التفكير المستمر بلحظات الوداع الذي كان واقعاً مرأى يترأى لي في أجمل اللحظات وأحب الأوقات تلك اللحظات التي كنا أنا وتارا نعيش في حلم من أجمل الأحلام، وكان حلماً فارغاً أيضاً، غير أنني تعودت أن أقتطف لنفسي مقطعاً من الزمن أحبه كلما تسنى لي ذلك، أحاول فيه أن أعيش راضياً، وأندمج في مفردات الحياة الصغيرة، وبدلاً من أن أنتظر الهزيمة واليأس

والضجر، أدفعها بعيداً عني، ورغم إمكانياتي المتواضعة، قررت أن لا أستسلم للضعف يوماً.

وكنت أرى الحياة حلمًا قصيرًا، والحب بالنسبة لي أمراً عظيم الشأن، ضرورياً كل لحظة، وكان الحب دائماً يقوي من شأني ويهذب أفكاري ويدفعني إلى التطور والعمل الجاد ولا شأن له بالزواج، وليس شرطاً أن ينتهي بالزواج أصلاً، وبما أن حباً من ذلك النوع يجب أن ينتهي بالفراق، فإن ما تتركه تلك التجربة المركزة الطارئة جدير بأن يكون محط احترام استثنائي، يتحول إلى ذكرى حية لا تموت، وبدلاً من أن يؤلنا، يجب أن يضيف إلى عقلنا مفردات ثمينة خالدة، ألم يمسننا ويدغدغ مشاعرنا بلطف، ويجعلنا في حالة هيجان عاطفي ووجداني عارم، فنصرخ في داخلنا ونرفض الواقع الذي يقضي صراع المادة فيه على أجمل ما في هذا الكائن البشري المعتوه الذي لا يتعظ من ويلاته المزمنة، وذلك الاحتجاج هو الينبوع الذي يتفجر أعمالاً خالدة تخص الشعور فقط، وتنتمي إلى محراب الروح، وهي وحدها التي تليق بعقولنا، بثقافتنا وخبراتنا التي نمت عبر عصور كثيرة بشكل بطيء.

كان حيي لتارا ينمو بسرعة مذهلة. وكنت أقول لها:

- وكل يوم أحبك أكثر

فكانت تفرح كثيراً

وكنت أقول لها أيضاً:

- يا عاشقة الكلمة والإطراء، أو لحن النجوم وحياء القمر، وألوف

من تلك الكلمات التي كنت أطربها فيها فتمتلئ غبطة وسروراً.

فأعود وأقول لها:

- أنك تحبين هذه الكلمات والإطراء

فتضحك ضحكة منتصر معتد بنفسه وتقول:

- أجل هذا صحيح

وكلما كان ينمو حبنا كانت مظاهر الربيع تنمو معنا، فنزداد فخراً بأنفسنا وقوة، رغم أنها كانت تشكو أحياناً من سوء ظروفنا وظروف بلدنا إلا أنها لم تكن تولول كبقية النساء عموماً، أو الرجال على حد سواء في تلك السنوات.

أما ما حدث في مدينة دهوك والقصبات فلم نكن نعرف شيئاً، ماذا فعل الجيش ببقية الأهالي؟ وماذا فعلوا بالوف البيوت التي تركناها وراءنا بكل أمتعتها؟ كذلك المحلات والأسواق، وكان ذلك يقلقنا أيضاً.

أما في المخيم الكبير الذي كان يعيش فيه أكثر من ربع مليون إنسان في أسوأ الظروف الحياتية عدا أنها كانت منطقة جبلية جميلة، فقد مرت الأيام سريعة بشكل مذهل بالنسبة لي بالطبع، فقد كنت أحلم أن أمسك بالزمن لأجعله يتوقف عندنا، أنا وتارا، زمناً يكون لنا وحدنا، زمناً مليئاً بالحب فقط، فقد كانت بقية مفردات الحياة رتيبة مملة، تبدأ بأن نستيقظ من النوم، وبعد تناول طعام الفطور الذي كان إعدادده، شأنه شأن بقية الوجبات، من اختصاص النساء، وأقصد سميرة ونرمين وتارا. وكانت نرمين وتارا يختلفان مع سميرة كثيراً بالرغم من أن مائدتنا كانت فقيرة وبسيطة، ثم نتوزع لإحضار الحطب الذي كان من واجباتي أنا وصالح وأحياناً تأتي معنا نرمين وتارا ترويحاً عن النفس ولتغيير الروتين.

أما خوض الصراع للحصول على الغذاء فكان من واجبات فهمي وعمر وأشاركهم أنا ونادراً صالح. أما ما يتبقى من الوقت فكان لتبادل بعض الزيارات الاجتماعية، والنوم وتبادل الأحاديث والأخبار المختلفة. والغريب أن المخيم بدأ يتحول شيئاً فشيئاً إلى سوق بضاعي بسيط، حيث أخذ بعض الناس يشتغلون بالتجارة، من بيع الأطفال للسجائر واللبان وأنواع البسكويت والمواد الغذائية المتنوعة، وكانت البضائع التركية تزداد في المخيم، يأتي بها التجار الشباب من القرى التركية القريبة، مثل الحلوى والأواني والأقداح والملاعق ومواد أخرى كثيرة.

وآزداد عدد الخيم، وكانت تلك الخيم بأشكال مختلفة، وألوان عديدة، فكان منظرها على تلك السفوح منظرًا فريداً. وفي تلك الفترة تمكنت أن يكون معي أوراق بيضاء وألوان وأقلام فقد اشتقت إلى الرسم، وتمكنت أن أكتب ملاحظات كثيرة عن رحلتنا تلك، وعن التجربة التي أجبرتنا الظروف أن نعيشها بتفاصيلها المملة، وآلامها المبرحة، بصرخاتها المدوية الكثيرة، وبتلك اللحظات التي انتشني الحب فيها من عالم كثير القسوة، كثير الألم، ورممني أنا وتارا في عربة مرصعة بأنفس المعادن، نسير فوق الغيوم، ونرتفع بذواتنا فوق الألم واليأس والندم.

زارنا ذلك الشاب الذي كان جاراً لنا قبل أن نحصل على الخيمة، وعرفت منه أنه طالب في كلية الطب في السنة الأخيرة، وكان قلقاً على حالة ابنته الصغرى، فقد أنهكها الإسهال وأستنفذ قوتها. كان شاباً لطيفاً هادئاً وكذلك زوجته. وتكلمنا عن الأطفال الذين كانوا يتألمون كثيراً، وقد تحولت أجسادهم النحيلة إلى كائنات مخيفة ولا نستطيع شيئاً، وقال:

- معنا عدد من الأطباء وكثير من أفراد الأسرة الطبية ولكننا لا نملك أي دواء، وما كان منه مع البعض نفذ في وقت مبكر، ولا زلنا ننتظر وصول بعض المساعدات الطبية العاجلة. وكان اسمه (سه كغان)، يحمل فوق أكتافه الهم الإنساني الثقيل في وقت مبكر.

زارنا عبد الله وأكبر أبناء أخيه، وطلبنا مني الرأي في انتخاب أحد الأفراد من ذوي الخبرة ومن عائلة معروفة ليكون على رأس مجموعة اللاجئين في المخيم الذين يتمون إلى عشيرتنا، حيث ساد الاتجاه إلى التكتل في مجموعات على ذلك الأساس، وطلبنا مني أن أقوم بتلك المهمة، وقال عبد الله:

- لقد أجريت عدة لقاءات مع الكثيرين من رجالنا واتفقوا على أن تكون قائد ومسؤول مجموعة عشيرتنا  
فقلت له:

- شكراً لكما ولبقية الرجال على هذه الثقة التي منحتموها لي، ولكنني أرى نفسي غير مؤهل لأداء هذه المهمة  
فقال ابن أخيه:

- أستاذ إذا لم تكن أنت مؤهلاً لهذه المهمة فمن يكون غيرك أهلاً لذلك؟

- عمك عبد الله

فقال عبد الله:

- أنا

- نعم أنت

- ولكنك بثافتك وإجادتك لعدة لغات وأهلك.....

- إن هذا لا يجدي الناس نفعاً في حالتنا هذه

- وكيف ذلك؟

- الناس هنا في حالة سيئة وأغلبهم قرويون بالطبع، وأنا ابن مدينة كبيرة، لا أعرف لغتهم ولا أستطيع التفاهم معهم مثلك، إضافة إلى فرق السن، فأنت رجل أكبر مني، نشيط وتتصف بهدوء الأعصاب، وأنا شخصياً معجب بأسلوبك الهادئ، وذلك خير لنا جميعاً.

وأيدني فهمي وعمر وطلبوا منه القيام بتلك المهمة، وقلت له:

- نرجو منك أن تقبل القيام بهذه الخدمة وسوف أقوم بإبلاغ الجميع

بهذا الاختيار، وهذا أمر قطعي بالنسبة لي

وقد علمت أن السلطات التركية والحلفاء طلبوا من اللاجئين أن يحاولوا تقسيم المخيم إلى مجموعات معقولة، وعلى أن يتم ذلك بتسجيل عدد الأسر في كل مجموعة، وعدد الأفراد وأعمارهم وأجناسهم في كل أسرة.

وعندما أستاذن الضيفان بالانصراف صحبتهما أنا وفهمي الذي طلبت منه أن ينضم إلينا. وقمت أنا وفهمي بالاتصال بمن نعرفهم من عشيرتنا وإبلاغهم بالخبر، وطلبت من كل عائلة أن تعد قائمة بالبيانات المطلوبة عن عائلاتهم. كذلك طلبت من مجموعة من الشباب أن يعملوا كمساعدين لعبدالله لتسهيل مهمته، وبخاصة في حالات استلام الحصص الغذائية وفي حالة توزيعها. ووقع اختيارنا على ثمانية شباب من بين من تطوعوا لتلك المهمة، وجميعهم يتصفون بصفات جيدة، وطلبت منهم أن يتولوا قبل كل شيء إعداد القوائم المطلوبة، واقترحت عليهم أسلوباً معيناً لتنظيم تلك البيانات، وقلت لهم:

- يجب أن لا تنسوا أنكم بصدد القيام بمهمة إنسانية غاية في الدقة، عليكم بالهمة والنشاط والعدل والإخلاص. ثم عرجنا في طريق عودتنا على عبد الله، وأبلغته بأن كل شيء قد تم أعداده لتسهيل مهمته، وأعطيته قائمة شفعية بأسماء مساعديه ورجوتهم أن يبلغني في حالة حدوث أية مشاكل من شأنها أن تعرقل عمله لنحاول معاً تذليلها وإيجاد الحلول المناسبة.

في طريق عودتنا وجدنا طفلة جميلة تبيع بعض التفاح قرب مخيم أسرتها، ولا أدري كيف جذبتني تلك الطفلة بمنظرها الوقور وهدوئها وكومة صغيرة من التفاح الأحمر كان على الأرض أمامها، فطلبت من فهمي أن تشتري عدة قطع من التفاح، فقال فهمي:

- لا داعي لذلك، ولا بد أنه غالي الثمن

- لقد قررت أن أشتري

واشترينا خمس تفاحات، لكل منا نصف تفاحة، ويبقى نصف تفاحة نتصرف بها عند التقسيم

و عندما عدنا إلى المخيم فرح الجميع وقالوا:

- تفاح، من أين لكم هذا التفاح؟

- لقد اشتريناه من طفلة في طريق عودتنا إلى المخيم

وقام فهمي بتقسيم حبات التفاح بيننا بعد أن تم غسلها بالماء، وقسم أول تفاحة وناول النصفين إلى الطفلين، وقسم الثانية وناول نصفها إلى سميرة ونرمين، ثم قسم الثالثة وناول النصف الأول إلى تارا ثم ناولني النصف الآخر بحركة مسرحية وقال:

- والنصف الآخر للرئيس بالطبع

فقلت:

- ولماذا بالطبع؟

فقال عمر ضاحكاً:

- لأنه بالطبع

فقلت:

- ولماذا؟ لا أفهم

فقال صالح:

- ليس من الضرورة أن تفهم، خذها يا أخي ولا تجعل منها قصة

و تم تقسيم الباقي، وأخذنا نأكل التفاح، لحظتها خطر ببالي أن أخذ

حبة من النصف تفاحة التي كانت معي وطلبت حبة من تارا. فقال

عمر:- ماذا أنت فاعل يا شفان ؟

- أريدهما لأجل شيء ما

فقال فهمي وعلى الفور:

- لماذا لا تجرب طريقة الإهمام كما يفعل الهنود الحمر؟

ابتعدت بضع خطوات من المخيم؛ وأعطيتهم ظهري ثم زرعت حبتي

التفاح جنباً إلى جنب في التربة، ووضعت قربيهما علامة مميزة وهي عبارة

عن صخرة متوسطة الحجم، وعندما عدت لأجلس في مكاني، قالت

نرمين:

- شفان ألا تنصب الخيمتين؟

فقلت لعمر:

- هل الأوتاد جاهزة؟

- نعم

- إذاً هيا للعمل

وكنا قد حصلنا من عبوة إحدى المظلات على خيمتين آخرين  
وبعض البطانيات الصغيرة الرقيقة، ومواد غذائية متنوعة وغير ذلك. اتفقنا  
أن نقيم الخيمة الثانية جنب الأولى بشكل متوازي، وتستخدم للنساء  
والطفلين، أما الثالثة فأقمناها على الجهة الثانية للأولى، وكانت خيمة  
صغيرة نسبياً، وقررنا أن نستخدمها كمخزن وكحمام وحفرنا ساقية  
لتصريف الماء. وكعادتها أبدت تارا تعاوناً مثمراً في العمل، حتى أن صالح  
قال لها:

– ألا تتعبين يا تارا؟

– لم نبذل الكثير من الجهد لكي أتعب هل تعبت أنت؟

– قليلاً

وهكذا تطور محل أقامتنا في المخيم بشكل أفضل، وزادت الأغذية  
والمؤن، وبدأت بوادر الاستقرار تظهر علينا بعد أن سلمنا زمام أمورنا  
للأقدار بما يخص وجودنا في (جهنم) ومستقبلنا المجهول.  
استمرت حالات الوفاة، وكالعادة كانت نسبة الوفيات من الأطفال  
الأسوأ حظاً عالية، ورغم أن الأسطول البري كان نشطاً ومستمراً مما  
ساعد على سد بعض النقص الكبير للأغذية إلا أنها لم تكن تكفي  
الجميع بصورة مرضية، وذلك بسبب سوء التوزيع أصلاً، وقلة تلك  
الأغذية نسبة إلى عددنا الهائل.

في تلك الليلة جلسنا قرب النار رغم أن الجو فقد الكثير من برده  
السابق، وكان القمر بدرأ، كانت ليلة مليئة بالشاعرية والهدوء والسكون،  
ونحن نعد أنفسنا بنوم عميق وبحرية تامة بعد أن أصبح لدينا خيمتان.  
ودارت بيننا أحاديث شتى، ولا أدري كيف انتهى المطاف بنا إلى الكلام  
حول الأبراج وذكر كل منا برجه، وقالت نرمين لتارا:

- وما برجك أنت يا تارا؟  
فقلت باستحياء:
- نفس برج الرئيس، برج الثور  
فقال عمر:
- هل تمزحين؟
- لا، لقد ولدت في العاشر من أيار  
فقال فهمي:
- أبشر أيها الرئيس  
فقلت:
- ولماذا؟  
فقال فهمي:
- لقد أصبح لك أنصار  
وقالت نرمين:
- وياه! هذا يعني أن عيد ميلادك يصادف بعد أقل من أسبوعين  
- أجل هذا صحيح  
فقلت نرمين:
- ما رأيكم أن نحتفل بعيد ميلادها؟  
فقلت تارا باستحياء:
- شكراً، ولكن أيعقل هذا؟ وفي مثل هذه الظروف  
وقالت نرمين:
- ولم لا؟ دعونا نحاول أن نمرح قليلاً وعلى سبيل التغيير، ما رأيك يا  
شفان؟
- فقلت:

- أنا موافق، لم لا

وقال فهمي:

- سوف نشعل غصناً خشبياً بدلاً من الشموع، والأغنية جاهزة  
بالطبع

فقال صالح:

- ومسألة الهدايا!

فقالت تارا:

- وجودنا معاً أكبر هدية!

فقالت نرمين:

- حبيبتي تارا، قالتها وهي تمرغ أصابعها في خصلات شعرها الجميل  
وقد توردت وجنتاها بسبب الحرارة التي تنبعث من النار.

في تلك الليلة الربيعية في أحضان الجبل، كانت صحة يونا أصفر  
أفراد قافلتنا قد تحسنت؛ فجلس معنا قرب أمه وهو يقضم قطعاً من  
البسكويت الجاف مع القهوة المرة لتساعده على التغلب على حالة  
الإسهال الشديد.

ومرور الأيام أصبح معلوماً لدى الجميع من أفراد مجموعتنا أن هناك  
تقارباً واضحاً بيني وبين تارا، من نظراتنا التي تعكس الكثير من حبنا،  
ومن رغبتنا في الظهور بأجمل صورة، ومن الخلوات الكثيرة التي كنا  
نصنعها، ومن الصداقة الحميمة التي ولدت ونشأت عبر الرحلة إلى تركيا

وظهرت ملامحها في (چه لي). وكنا نلتقي كثيراً، وتحدثت بجدية، ونصنع معاً أجمل الكلمات، وكنت كل صباح أقول لها كلمات غاية في التهذيب، أنقيها بحذر وتأن شديدين، كلمات هي أقرب إلى الشعر، معجونة بموسيقى سهلة تطرب النفس، كلمات لن تستطيع أية امرأة رفضها، وكانت تبدأ مثلاً:

– تارا ويا أجمل الخلق

أو تارا حلوة الجبل

أو تارا أيتها اللحن الخالد

أو تارا ويا أميرة القلب والفكر والخيال

وأغلب تلك الرسائل الشفوية كانت تنتهي بـ(وكل يوم أحبك أكثر). وفي بعض الأيام كنت أسمعها رسالتين، إضافة إلى مئات التعابير الرقيقة، والملاحظات التي كانت تسميها تارا (ملاحظات ذكية). وأذكر أننا كنا قد اتفقنا أن نرمز لكلمة الحب أو أحبك بالفرنسية التي كنا نقولها للبعض عدة مرات في اليوم، وعندما نكون مع الآخرين بكلمة (زيب) مرادفاً لكلمة (ژوتيم)، وكلمة عبدالله مرادفاً لكلمة (أعبدك)، وكان الآخرون يتساءلون عن سر تعلقنا بالزيب!

وبلغت تلك الرسائل لحين رحيلها أكثر من مائة رسالة، من أجمل وأرق ما يمكن أن يقولها رجل لامرأة، والتي أصبحت خلاصة تلك التجربة، وترجمة صادقة لتلك العواطف السامية التي كانت السبب في ولادة تلك السمفونية الخالدة التي ملأت سماء الجبل ورفعت من شأن مخيمات (چه لي)، وكانت رداً جريئاً وشجاعاً لحالة التداعي واليأس والفراغ

التي عشناها، وجعلتنا نقف على أقدامنا مرفوعي الرأس كذكر حجل بري يقف فوق صخرة يشرف على وادي عميق في عز الربيع.

جاء أيار تلك السنة يحمل الكثير من الدفء والجمال، بعد أن تفجر بكل مظاهر الربيع من ضوء وهواء نقي وألوان أوراق الأشجار والخضرة وتلك الزهور البرية التي كنت أجمعها وأقدمها لتارا كل صباح وأنا أقول:

- ثوتيم

فتقول بصوت هامس دافئ:

- ثوتيم

وجاء أيار محملاً بالحب أيضاً، تلك العاطفة التي كانت تنمو بلا حدود. وتحسنت أوضاعنا بعد أن تم تقسيمنا إلى تسعة مجموعات (قواطع) مستقرة ومنظمة، فتخلصنا نهائياً من مشكلة سوء التوزيع، وزاد حجم تدفق المساعدات الإنسانية، ووصلت أولى الفرق الصحية، وتم الحد من خطورة الكثير من الحالات المرضية. كذلك وصلت فرق صحية أخرى للاعتناء بتوزيع مياه الشرب، وإقامة المزابيل، ومعالجة مياه الصرف الصحي. كانت فرقاً عديدة، رسمية وغير رسمية، تمثل منظمات إنسانية لم نسمع بها من قبل، مثل (منظمة أطباء بلا حدود) و(الباحثون عن الدموع)، ومنظمات تعني بالأطفال والنساء وغيرها. وقام الكادر الطبي ومن ينتمي إلى تلك الأسرة بالتطوع للعمل في تلك الفرق؛ لتوسيع حجم العناية الصحية. كما وصلت فرق صحفية كثيرة ومن شتى بقاع الأرض، وتم إجراء عشرات اللقاءات الصحفية المصورة على أشربة الفيديو وتم

إرسالها إلى محطات التلفزة والصحف والمجلات، فذهل العالم، وزادوا من اهتمامهم بقضيتنا وبدأت تناشد المجتمع العالمي لإيجاد حلول عاجلة لمشكلتنا الأساسية مع السلطة المركزية في العراق.

كما علمنا بأن معظم المؤسسات الاعلامية العالمية قد نصبت معدات لليث المباشر بالقرب من المخيم اضافة الى قيام الاتراك بنصب جهاز تلفون دولي في مدخل المخيم، قام العديد من اللاجئين عن طريقه، بالاتصال بذويهم في الخارج. نتيجة لذلك بدأ المخيم يشهد زواراً من اوروبا وامريكا من اقرباء سكان المخيم، جاءوا لنجدة ورؤية ومساعدة اقربائهم.

وكان المخيم يعج بعشرات الحوادث كل يوم، إضافة إلى الأحداث التي كانت تتغير وتمر بسرعة، تلك التي أصبحت تشكل قوام الأحداث والتي لم تكن لتهمنا في شيء، حيث كنا أنا وتارا نعيش في معبدنا الخاص الذي أنشأناه حبة فحبة، شبراً فشبراً، معبداً طهر جسدنا، فخفتنا وحلقنا عالياً إلى حيث السحر والخيال، فأصبح فناً رفيعاً يهر الآخريين، وكان دعوة للصمود والقوة والانتصار، كان نهرأ صافياً يروي الربوع فيتفجر جمالاً وألواناً وغناء، كان صرخة قوية لتقضي على الضعف والكسل والتهيه وعدم الانتماء، كان هدفاً بحد ذاته ومنهجاً غنياً كفوء.

مساء العاشر من أيار حيث صادف عيد ميلاد تارا، كان مخيمنا يعج بالحركة لإعداد بعض الأشياء البسيطة المتوفرة لدينا، وكنت قد أحضرت هدية، وهي عبارة عن كأس حفر بإتقان من الخشب بواسطة سكين حاد، طوله سبع سنتيمترات وقطره سنتيمتران، غلفناه بورق البسكويت، ثم وضع في علبة صغيرة من الكرتون، وكتبنا عليها عبارة (عيد ميلاد سعيد)، وكانت تارا تحب أن يحتفى بها وأن تكون محور اهتمام من قبل

الآخرين، لذلك كانت قد أعدت نفسها بإتقان، فلبست بدله زرقاء لماعه، وصففت شعرها بعناية، فبدت جميلة ونظيفة كأنها عروس مقارنة بمظهر الناس في تلك الظروف. وفاجأنا فهمي بأن وفق في الحصول على شمعة متوسطة الحجم، وقال:

- ستكون هذه الشمعة تعبيراً عن العدد الكلي للشموع التي تمثل عدد سنين عمرك، وذلك ما لن تفكر بأن نسألك عنه أبداً وكما جرت العادة.

فشكرته تارا وقالت:

- لن أنسى هذا اليوم وهذا الاهتمام المخلص، أما عن عمري فأني اليوم أحس معكم بالنضج أكثر من أي وقت مضى.

وجرت مراسيم عيد الميلاد، حيث أشعلنا الشمعة الوحيدة التي أفلح فهمي في الحصول عليها، وكانت تارا وبمساعدة نرمين وسميرة قد أعدت تشكيلة من أنواع البسكويت وبعض المخبليات وأشياء أخرى بسيطة، وصادف أن حضرت فاطمة فأغضب حضورها تارا وبخاصة عندما كانت تكلمني، وكان ذلك واضحاً على وجهها حيث تغيرت ملامحه وغار ذلك الفرح الطاغى وركنت إلى الصمت ألا في حدود المجاملات.

وبعد هبوط الظلام حلقنا حول تلك الأشياء وبدأنا ننشد (عيد ميلاد سعيد) باللغة الإنكليزية أعقبها (سنة حلوة يا جميل) باللغة العربية، ثم أكلنا ما استطعنا تديره بعد أن أطفأنا الشمعة وقدمت لها الهدية بإسم أفراد مجموعتنا، وسرت بما كثيراً، وقلنا لها:

- نعتذر عن استحالة الحصول على الهدايا التقليدية في مثل هذه المناسبات، نرجو أن يكون هذا الكأس معبراً عن حبنا وتقديرنا لك.

فضحكت بعد أن أحمر وجهها وقالت:

- أنه كأس جميل وتحفة صغيرة نادرة، سوف أحتفظ به باعتزاز، وأنا  
شاكراً لكم جميعاً هذا الاهتمام  
و بعد ذلك سألتها نرمن:  
- ماذا تشعرين اليوم؟ وأنت تستقبلين سنة جديدة؟  
فقلت بعد تفكير:  
- أحاول أن أستعرض أحداث العام الماضي وأستفيد من أخطائي ثم  
أفكر بما أنجزته وما لم أنجزه وأسباب ذلك  
فقال لها عمر:  
- وماذا في ذهنك للمستقبل؟  
- أتمنى أن نعود إلى الوطن دون إذلال وأن تتغير الأوضاع لصالحنا  
و قال لها فهمي:  
- ماذا تعلمت في العام الماضي؟ مثلاً شيئاً يمكن أن يكون إضافة  
جادة إلى شخصيتك  
فقلت وهي تبتسم:  
- لا أدري بالضبط، فحياتنا مغلقة ومحدودة كما نعلم جميعاً، ولكن  
مع ذلك يمكن القول أنني استطعت التخلص من الكثير من الكره،  
ووجدت نفسي مسالمة أكثر، ونمت عندي القدرة على الصفع، وقررت  
أن يكون الحب منهجي في الحياة.  
فقلت نرمن بصوت خافت:  
- الله... الله  
فقال لها صالح:  
- هل يمكن في نظرك التخلص من الحقد والكره مثلاً، وكيف؟  
فقلت تاراً:

- أظن نعم وذلك بأن نجد طريق الحب  
فقلت لها:

- أي حب تعنين؟

- الحب الذي ناقشناه نحن مرة، أن الحب وحدة لا يتجزأ وليس له  
أنواع، فحب العمل أو الموسيقى أو امرأة، وأعني الحب الذي يرفع من  
شأن الإنسان ويقويه ويدفعه للتفوق والإبداع.  
وهكذا أصبحت تارا تستطيع الكلام عن الحب بحكمة، بل والتنظير  
فيه أيضاً.

وبعد أن تفرق الجمع بعد أن تمنينا لها حياة سعيدة وعمراً مديداً، كان  
واضحاً أنها لا تريد أن تتكلم معي، وكانت تتحاشى نظراتي، وعلمت مرة  
أخرى أنها الغيرة، وحاولت أن أشرح لها أنها يجب أن تتغير وتنضج وأن لا  
تصعد إلى قمة التل في كل موقف، فاعتذرت وسوينا الأشكال بعد أن  
تأكدت أننا لم نوجه الدعوة لفاطمة لتحضر الاحتفال.

بالرغم من وصول الفرق الصحية وإقامة المراكز الصحية وتوفير  
الأدوية، فقد كانت بعض الحالات المرضية قد وصلت إلى نهاية المطاف  
واستمرت الوفيات. ومن أصيبوا بكارثة مروعة ذلك الشاب الطالب في  
السنة الأخيرة من كلية الطب، وأقصد (سه كغان) الذي كان جاراً لنا قبل  
أن نحصل مجموعتنا على الخيم، وكان قد التحق بإحدى الفرق الصحية  
الإنكليزية للاستفادة من خبرته، وكانت صحة ابنته الصغرى (9 أشهر)  
في تدهور مستمر، أما ابنته الكبرى (3 سنوات) فكان حالها لا ينذر  
بخطر، وبينما كانوا يتوقعون موت الابنة الصغرى في أي وقت ماتت  
الكبيرة بشكل مفاجئ، مما سبب لوالديها ولنا جميعاً ألماً شديداً، وأذكر  
أننا جميعاً ذهبنا لمواساة والديها وساعدناه في عملية الدفن. وبعد يوم

واحد فقط ماتت الابنة الصغيرة أيضاً والتي كانت مصابة بجفاف شديد. وأذكر أنني ركضت مع أخوتي صوب خيمتهم مع صراخ زوجته الشابة، وعلى مقربة منهم اكتشفت أنني فارغ لا أملك شيئاً ذا قيمة تذكر. اهتزت معنويات تلك الأسرة الصغيرة، وكان مصابها فاجعة مميزة. وكانت أم الطبيب الشاب تواسي زوجة أبنها الشابة بعد أيام بكلمات رقيقة محاولة زرع الأمل والأيمان في نفسها المتأللة المنهارة دون جدوى.

وبمرور الأيام أصبح الجزء العلوي من المنحدر المشرف على الوادي مقبرة لشهداء رحلة المليون، وكانت تكبر وتتوسع مع مرور الأيام ليحضر تراها تلك الأجساد الطاهرة التي صارت الموت بشجاعة نادرة، وعندما هزمها المرض والبرد والجوع عادت إلى أحضان تربة وطنها، وستظل تلك المقبرة شاهداً على غباء هذا الكائن الأحق الذي ندعوه (الإنسان)، الذي لا يعينه عقله الجبار على التخلص من (جنون التاريخ) وأعني به الحرب والقتل والتعذيب والدم والخوف والقسوة. تلك النفوس الأبية التي رفضت أن تموت كالخراف، ولم ترحمها الأقدار، بل كان كل شيء ضدها حتى عوامل الطبيعة تلك السنة في ذلك الربيع المتأخر، حيث ضرب أبطال (جهنم) مثلاً خالداً على رفض العبودية، وعلمت الأجيال كيف يجب أن نعشق الحرية مهما كان الثمن، فامتزجت دماءهم الزكية بدماء ألوف الشهداء الذين سقطوا بين أحضان الجبل عبر أجيال كثيرة، وكان درساً بليغاً للأجيال، بأن الحرية لا تمنح بسهولة.

في تلك الأيام وقد أصبحنا أصحاب قضية إنسانية ملأت أخبارها أرجاء المعمورة، بدأ بعض المغامرين من سكان مخيمنا بالعودة سراً إلى دهوك، وبعد أن هدأت الأوضاع وبسطت السلطة هيمنتها المطلقة على سائر أرجاء القطر. وأخذ عدد هؤلاء يزداد كل يوم لكي يتفقدوا

ممتلكاتهم ويوتهم التي تركوها لرحمة قوات السلطة، وبدأت الأخبار تنتشر بين سكان المخيم بسرعة مذهلة. فعلمنا أن الذي حدث صبيحة الواحد والثلاثين من آذار عندما دخلت قوات السلطة بأعداد غفيرة إلى مدينة دهوك، تم تفتيش كافة البيوت الفارغة والمأهولة على حد سواء، وتم نهب الكثير من الممتلكات، وقاموا بتدمير صفوف من البيوت في محلة (بروشكي) الشعبية بدعوى أنها كانت مأوى لرجال (البيتشمه ركه). وأقامت السلطة مؤسساتها الإدارية والأمنية، وعاد المحافظ والمسؤول الحزبي، وأقام الجيش الريا حول المدينة.

وعلمنا أن الكثير من البيوت تعرضت إلى النهب كلياً أو جزئياً، وعلمنا أيضاً أن والدينا بخير وقد أرسلنا لنا السلام والتمنيات. وكانت تلك الأخبار تهز مشاعر الناس في المخيم وأخذوا يفكرون بممتلكاتهم، وساعد على تعميق تلك الأفكار التي تبعث على القلق استقرار الأوضاع في مخيمنا الكبير، وزوال الكثير من أسباب الخوف وتحسن الأوضاع الجوية.

أما مجموعتنا فقد كان فهمي قلقاً على زوجته، ونرمين تفكر بمستقبل دراستها، أما عمر وصالح فكان الأمر عندهما سيان. فعمر سيعود إلى الجيش وحياتها وأوامرها غير المعقولة، أما صالح فكان قلقاً على أدويته التي يتناولها بانتظام، أما أنا فقد كنت أتمنى أن يتوقف الزمن لأبقى مع تارا أطول فترة ممكنة، وهذا يعني أنني كنت أكثر سعادة، فقد اهتمت إلى طريق الروح وعالم فيه الورد والموسيقى وغناء الألوان وأجمل النسمات تشعرني بالقوة وأمل بلا حدود، وقد تحولت الأشياء حولي إلى مفردات متنوعة غاية في الجمال، وهناك حماس مدهل للتفوق. أما سميرة فكانت تمنى أن تعود مع طفلها إلى بيتهم الصغير في مانگیش وتعود إلى

حياتها الاعتيادية بأسرع وقت ممكن، وأخيراً كانت تارا تحلم بأوروبا أو أمريكا أو أستراليا وتترك وراءها هذا المجتمع الذي لا يحاول أفرادهِ شيئاً من أجل راحته وسعادته، ويأبى التخلي عن جهله الموروث.

في البداية كنا أنا وتارا مقتنعين أن العاطفة النبيلة التي ربطتنا عاطفة واعية نسيطر عليها سيطرة تامة، وليست وسيلة لهدف مرسوم، غير أن الأيام والعشرة والظروف القاتلة التي عشناها وحاجتنا الماسة للإشباع بتلك العاطفة جعلت من ذلك الشعور الجميل بكل نبلة وموسيقاه الخالدة هدفاً في حد ذاته، وأصبح حلماً يخلق فوق روحينا، وهما تمتزجان كلياً بحيث أزلت كل الحواجز التي كانت بيننا وأبديت استعدادي للاقتراح بهما؛ لنبرهن للعالم أن حباً من ذلك النوع يفرز احتراماً نادراً يمكن الحفاظ عليه بعد الزواج أيضاً، بل يمكن تعزيزه وتعميقه وتوسيع أبعاده لينمو دون توقف ودون أن تتسلل إليه لحظة ضعف أو ملل، كما نمت بذرتا التفاح اللتين زرعتهما في الثلث الأخير من شهر نيسان أمام باب المخيم، وكانتا تنموان ويزداد طولهما كل يوم لتكونا الشاهد على ذلك الحب. وكانت تارا بدورها تتمنى أن نلتقي ونعيش معاً لنعزف معاً تلك الأنغام التي تطهر الجسد وتنعش الفكر، وتجعل منا أكثر إنسانية وسلاماً، لولا فرق الدين وأمور أخرى. وكانت تقول:

- أين سأجد رجلاً يحبني مثلك كل هذا الحب؟

وكنت أقول لها:

- إذا شاءت الأقدار أن جمعتنا مرة أخرى، أينما كنا وفي أرذل

العمر، أرجو أن لا تمنعي في أن نعيش معاً ولو للحظات

فتقول:

- انك لا تفقد الأمل أبداً، وخیالك واسع، وللأحلام عندك اعتبار

رصين

فقلت لها:

- لدي إحساس قوي بأننا في النهاية سنلتقي معاً، أما كيف ومتى؟  
لا أدري، ولكنني مؤمن بأن الأقدار التي جمعتنا هكذا صدفة سوف تجمع  
شملنا من جديد، مهما ابتعدنا عن بعضنا ومهما كانت الظروف.

وكانت تارا عندها قد تحولت في نظري إلى رمز بديل لكل الأشياء  
التي أحببتها وحلمت بها. كان حبها عاطفة شاملة رفعتنا بعيداً إلى عالم  
نقي، عالم الفكر والروح والجمال والقوة، إلى حيث الراحة والرضا، عالم  
يخلو من الألم والحقد والملل والكذب والأقنعة الكثيرة.

وكنا نلتقي معاً في خلوات كثيرة، نمارس فيها طقوس الحب التي كانت  
غاية في الأدب، طقوساً أقرب إلى العبادة منها إلى كلمات أو نظرات،  
وكان الوقت يمضي بسرعة مذهلة، وكان ذلك يقلقنا بالطبع لأنه يعني  
دنو الفراق وتوقف الموسيقى وخلو المعبد والعودة إلى نمط حياتي رفضناه  
وتجاوزناه أنا وتارا إلى عالم السحر والأمل والصحة والنظافة.

وعندما كنت أنظر إلى وجهها وعينيها وشعرها أقول لها:

- سأموت وعيناك لم تشبع من وجهك بعد

وكانت تارا تعني لي بناء فنياً متكاملاً ومنسجماً ونادراً، بناء يرضيني  
كلياً وأعشقه بلا حدود، بناء شامخ أستحوذ على كل عناصر الجمال،  
وتكون في وقت قصير بشكل مركز؛ لأننا كنا بحاجة ماسة إلى عاطفة  
نبيلة تغذي بها روحينا؛ لحماية نفسينا من السقوط ولكي لا تهتز  
إنسانيتنا، فقد قررنا أن نكون أقوياء حتى آخر لحظة، وعندما اكتمل

البنيان وترسخت عناصره الجمالية حدث لي ما كان يحدث للمثال الخالد (مايكل أنجلو) عندما كان ينبهر بالتماثيل الرائعة التي كان ينجزها، حتى أنه من شدة إعجابه كان يسجد لها، وهكذا تحولت تارا إلى معبد مقدس، ليس فيه شيء يمكن أن أتعامل معه بشكل اعتيادي. وكانت تصر على أن أحضر حفل زفافها إذا ما تزوجت، متجاوزاً ذلك الموقف الشعوري الصعب لأبرهن لها على شجاعي وتمسكي بمبادئتي التي أعلنت لها مراراً. وكانت تتمنى أيضاً أن تصطحب معها خطيبها يوماً لتزورني كي أعرف عليه وأمتحنه للوقوف على مدى صلاحيته أن يكون جديراً بها ثم توافق على الزواج منه.

بعد منتصف شهر أيار من ذلك العام تبني الحلفاء المشروع الأوربي لإنشاء منطقة آمنة للأكراد. وكان المشروع قد رفع إلى مجلس الأمن من قبل بريطانيا وفرنسا. وهكذا أصبح معلوماً لدينا أن سكان المخيم في (جه لي) سوف يعودون إلى مدنها وإلى بيوتهم. ولاستكمال الترتيبات تم اقتراح إقامة مخيم ضخم مرحلي في مدينة زاخو تحت حماية قوات الحلفاء، ثم تم تحديد المنطقة الآمنة ومنطقة الحظر الجوي شمال خط العرض رقم (36). وطلبوا منا الاستعداد للسفر، غير أن الناس رفضوا العودة إلى مدينة دهوك مثلاً ما لم تغادرها سلطات بغداد بشكل نهائي.

ولإنجاز ذلك عزز الحلفاء من الوجود العسكري متمثلاً بوحدات من القوات المسلحة الأمريكية والبريطانية والفرنسية والاسبانية والهولندية وجنسيات أخرى، وكثفت من دوريات الطائرات الحربية والمروحية، وكانت تلك الطائرات الحربية تستفز الوحدات العسكرية لقوات السلطة، وبخاصة الربايا. المقامة على قمم الجبال، بأن تطير فوقها بمسافات منخفضة جداً أو إلقاء المياه الحارة في الربايا لإجبار جنودها على ترك تلك المواقع. وبعد

أن تم سحب كل أشكال وجود السلطة في المدن بدأت الهجرة العكسية، فعاد الناس إلى بيوتهم، ووضعت المنظمات الدولية أسطولاً ضخماً ومنظماً من السيارات لأتمام تلك الهجرة العكسية. كان سكان مخيم (چيه لي) قد خف عددهم كثيراً؛ حيث عاد جمع لا يستهان بهم إلى مدنها تباعاً وسراً.

في الأسبوع الأخير من أيار، أصرت سميرة على أن لا تنتظرنا لنعود معاً، لذلك سجلت أسمها وأسماء أفراد أسرتها مع أول قافلة للسيارات.

وهكذا وصلت عملية هجرتنا ومأساتنا إلى نقطة النهاية، وكان ذلك يعني أن ساعة الوداع قد حانت. وأنسدل الستار على مسرح حينا أنا وحلوتي تارا. وأخيراً جاء الوداع، ولم يكن مثلما كنا نريده ان يكون موقفاً عادياً نقول لبعضنا (مع السلامة)، فعندما تحدد يوم السفر لم أستطع النوم في الليلة التي سبقت ذلك اليوم الذي بقيت فيه جسداً ضعيفاً غادره روحه، وفقد الإحساس بالجمال، وخرجت من الخيمة لأجلس في العراء تحت ضوء القمر ولا يدري بحالي أحد، كان لكل منا تأملاته وأحلامه وآلامه الخاصة، ولا بد أن تارا هي الأخرى كانت تثقل في فراشها عبثاً تحاول أن تستجمع أسباب النوم.

ومضى الليل بطيشاً، وزاد صرير الحشرات ثم نامت هي الأخرى، وقلت الضوضاء والنيران وصوت الراديو حتى سكن كل شيء حولي، فبقيت أنا والقمر نحاور بعضنا البعض بصمت، ونشكو ظلم الأقدار وتفاهة الحياة العضوية التي مصير كل شيء فيها إلى الفناء حتماً. ومر شريط حياتي في خيالي بسرعة، فقرة فقرة، يوماً بعد يوم، حدثاً بعد حدث، وأدركت أن أؤمن ما فيها كان لقائي بتارا التي كانت تشكل

المشاعر التي أفرزتها حبنا إضافة ثمينة ونادرة من حيث النوع وكحالة إنسانية مرضية؛ ففرحت كثيراً ثم عدت أحزن كالشكلى وهي تقبر فقيدها، فكرهت الوداع وأنا أمسك بكل مشاعر الحب، أضمتها إلى صدري وأودعتها في خيالي وأطلق موسيقاها الخالدة لتنتقل في الفضاء لتتحرر من سجنها، ومن قيودها فتعود إلى السماء، وتتجول مع الغيوم المسافرة وتنزل مطراً يهب الحياة أينما كان الجهل والظلم والقيء والدموع.

ومضى الليل ثم انتصف ونام كل الخائفين إلا أنا والقمر والصمت الذي كان يلف الجبال، ذلك الصمت الذي طالما عشقته طول عمري وأودعته أسرار خيالي وروعة حبنا أنا وتارا التي سوف تحضر غداً معاً مراسيم الوداع، وعلي أن أكون ممسكاً بوقاري وعواظفي التي ستتحوّل حتماً إلى طوفان هائج، وكيف سأكون هادئاً وأتصنع اللامبالاة وحوالي الجبال تئن من شدة جراحها وتكلها منذ الأزل؟، وربما كانت تارا تنام بسلام، نوم طفل جميل يخشى الظلام ويحلم بفجر قوي يمسح الخوف والألم.

وخطر ببالي أن أهرع إلى تارا، لتخرج معي إلى القمر، فأنا وهي وطن مستقل سعيد، وجعلت الظروف الصعبة حبنا في عرس دائم، وخاضت نفسانا تجربة المستحيل، نرفض النوم والقيء والعيب، نتعانق، ونقسم بالجبل وبالقمر وبكبرياء الحرية على أن نبقي معاً طول العمر، لنؤلف الحاناً شجية ونقدم زهوراً لدعاة العنف والحرب والظلم وإبادة البشر لعلهم يرمون وإلى الأبد أسلحة الحرب والدمار، فيصبح الليل نهاراً، ويكون المطر نعمة، وتتحوّل الطيور مثني مثني، وتتجمع حولنا كل فراشات العالم، ويتهيج كل أطفال الأرض.

وأمتد بصري إلى خيمتها وكانت ساكنة، لعل تارا كانت تغط في نوم عميق هرباً من إعادة مشاهد لحظات الوداع، وربما كانت تتقلب في فراشها وتلعن الحب والموت وكل أشكال الحرمان، وأدركت أن تارا تحولت إلى معبد مقدس، دخلته تائباً صافياً نقياً، وأنها رمز كبير للأدب والرقّة والجمال، وأنها ملاك طاهر وفي وجهها رفعة الإنسان، وفي عينيها محبة المسيح والمطر، وأدركت أيضاً لحظتها مدفوعاً بقلقي وخوفي من محنة الوداع أنني بغيرها غصن يهتز ضعفاً ويصيح بوجه الزمن ويركض بلا انقطاع ويموت كل يوم الماء ورفضاً، وأدركت أيضاً أن حيي لها فضاء بلا حدود، وعاطفة تملأ الكون نغماً، لحناً لن ينتهي فموسيقاه في كل قطرة ماء، في الغيوم وعلى ظهر النجوم، وفي كل عقل نبيل.

ومرت في خيالي الأيام التي عشناها معاً لحظة فلحظة، لحظاتها الحلوة التي كنت أزداد فيها قوة، وتلك التي كنت أشعر فيها أنني إنسان حيث أختار عقلي الحب بديلاً للضعف والخوف والهزيمة. وعندما كنت أقول لها:

– لقد تغيرني كثيراً في هذه الفترة الزمنية القصيرة رغم ظروفنا القاسية

فكانت تقول:

– الفضل يعود لك، فلقد تعلمت منك الكثير

– الفضل كله للحب، وتعلمنا منه أن الإنسان يجب أن يحيا وأن

يعمل ويجب.

واقتربت من الفجر، واستيقظت كل حواسي، وجميعها تشاركني محنتي، وتعبر عن رفضي للفراق الذي تقترب منه شيئاً فشيئاً، وكنت في غاية الألم، وإسم تارا ينساب بين شفتي حلواً وفي غاية الحنان، ولم أكن يوماً

أحلم أن أحب شيئاً يصب في عقلي كل ذلك التعلق واحترام الذات،  
وتساءلت:

- لماذا كتب على من كان على شاكلي أن يودع المواكب، وأن  
يحضر مراسيم انتحار القلب والفكر والحرية، وأن يحضر عرس القلب دون  
أن ينزل إلى ساحة الرقص واللهو والغناء.

رغم ذلك لم أشعر بالندم على حبنا، ولم أحس لحظة بالضعف أو  
الآلم الذي يبعث فينا ذلك النشيج الذي يفرزه الحرمان، بل كان حبنا قد  
استحوذ على العقل والنفس، وجعل من الأيام تمر بسرعة كدقات القلب.  
فقد كانت تارا زهرة الأيام العصبية، وعلمني حبها أن الحب محنة ومعركة  
ككل المعارك، وتضحية وعطاء وموسيقى تعزفها آلات ذكية. وهو ليس  
لعبة نتسلى بها، بل إعصار يبني قصوراً فخمة وينشيء مملكة من الجمال  
ليس له أول ولا آخر.

ومع انبلاج ضوء النهار التالي، شعرت بالبرد، وأخذ جسدي النحيل  
يرتجف، وغمرني سكون غريب، وأيقنت أننا بدون الحب صحراء خالية،  
وكائنات بليدة، وهبت على ذلك الوادي الذي أرتبط بمأساة هجرتنا  
وعلى المخيم الكبير نسمات هواء باردة ومنعشة، وعندما أخذت لنفسي  
عدة أنفاس عميقة شعرت به بارداً في رئتي، فساد جسدي المهزوم رعشة  
برد غير عادية فأشعلت النار قرب الخيمة، ولكن البرد كان يهز بدني  
فأيقنت أن ذلك كان ضعفاً غزا أطرافي، وكان خوفاً هائلاً من لحظات  
الوداع، وكانت هزيمة شنعاء أيضاً في معركة الحب؛ فتألمت كثيراً، وأخذ  
ذلك الألم يعصر رأسي وأنا لا أطيق تلك الهزيمة، وكان الانتصار  
مستحيلاً أيضاً.

ومع بزوغ شمس النهار، ازداد توتر أعصابي، وشعرت بالضعف،  
وتمنيت أن أمسك بعجلة الزمن لتتوقف عن الدوران وأنا جالس قرب  
النار والسيجارة لا تفارق أصابع يدي. كل الجمال حولي تحول إلى تمائيل  
فقدت روحها، الصخور والأشجار والخيم التي بدأ البعض من سكانها  
يخرجون منها لاستقبال يوم جديد. وكانت نرمين أول من صحت،  
وحينما خرجت من الخيمة قالت:

- صباح الخير يا شفان

- صباح الخير

- كنت سهراناً طول الليل، أليس كذلك؟

- نعم لم أستطع النوم

قلت ذلك وأنا مطرق الرأس، لم أستطع أن أنظر إليها، فقد كان  
وجهي متألماً كثير الضعف.

فقلت بعد أن جلست قربي:

- لا بأس عليك يا شفان، كان عليك أن لا تطلق العنان لعواطفك  
منذ البداية، لكي تجنب نفسك هذا الموقف الصعب

- هل تقصدين...

- أجل يا شفان أننا جميعاً ندرك ونحس بحبكما، ولكننا آثرنا أن  
نظل بعيدين خوفاً على مشاعركما

- لقد حاولت أن أقاوم مشاعري وجاهدت كثيراً لكي لا تتطوردون  
جدوى فقد كان ذلك الشعور قوياً أقتحم قلاعي وأستحوذ على القلب  
والعقل.

- صدقني أنما لا تستحق منك كل هذا الصدق والوفاء  
- ربما، ولكن قلبي يرفض هذا، وأدرك تماماً أن عقلي صنع ذلك  
الحب خطوة فخطوة، وحصل ما حصل  
ثم خرج عمر وبعد أن أخذ يحرك ذراعيه ويستنشق الهواء النقي قال:  
- صباح الخير  
فقلنا معاً

- صباح الخير  
ثم جلس معنا وقال:  
- كيف أحوالك أيها الزعيم البطل!  
- بخير، بخير  
ثم أبتسم وقال بعد أن نظر إلى نرمين:  
- (تكبر وتنسى)، كلنا لها  
فأدركت أن حبنا لم يعد سرّاً كما كنت أظن  
وعندما لم يعلق أحد منا أضاف عمر قائلاً:  
- ليست هناك امرأة تستحق منك كل هذه المشاعر النبيلة  
- لا أدري يا عمر، فلقد اعتدت أن أطلق عنان عواطفني فذلك  
أفضل من بقائها حبيسة في النفس، حيث أنما ستؤلمنا أكثر  
فقالت نرمين:

- ليس هناك أنبل من عواطف الحب، ولكنها كما ترى تطلب في  
الأخير محطة لترتاح هناك وتستقر

في تلك اللحظة خرجت تارا من خيمتها، وحالما وقع بصري على  
وجهها خارت قواي من جديد، وذهب جهد سهر الليل بطوله في  
استجماع أسباب الشجاعة سدى، وكذلك القناعة بالقدر والمقسوم  
والحظ والنصيب، فقد عاد قلبي إلى الرقص والتوتر والخوف، وأنتابه فرح  
لا يوصف أيضاً. اقتربت منا وقالت:

- صباح الخير

فقلنا:

- صباح الخير

- ما بالكم؟ أرى أنكم أبكرتم النهوض هذا الصباح  
فقال عمر:

- أجل وأنه الصباح الأخير لك هنا

- نعم وسوف تلحقون بنا بعد أيام أليس كذلك؟

- أجل أنها مسألة أيام

وبعد أن أتم عمر جملة قال لرمين:

- هيا لنتمشى قليلاً

وهكذا بقينا أنا وتارا لوحدنا في ذلك الصباح الذي شهد وداعنا  
وفراقنا الأبدي، نتبادل النظرات وفي قلوبنا حزن عميق. جلست تارا قربي  
صامته تنظر إلى وجهي، ثم قالت:

- شفان

- يا روح شفان

- لا أحب أن أراك هكذا، لقد اتفقنا على أن نتصف بالشجاعة  
ساعة الوداع، أليس كذلك؟

- نعم، أنني أحاول أن أكون طبيعياً قدر استطاعتي  
ثم نظرت إلى وجهها الجميل وقلت:

- ثوتيم

فقلت بنبرة عميقة:

- ثوتيم

- انه الوداع يا تارا، لقد جاء سريعاً

- انه القدر، وعلينا أن نرضى بنصيبنا من الحياة

- ثوتيم

فقلت:

- ثوتيم وهي تبتسم ابتسامتها الساحرة

فعدت أقول لها وقد غاب وجهها عن ناظري عندما امتلأت عيناى  
بالدموع:

- أحبك حتى زوال الشمس

فقلت:

- تمالك نفسك أيها الحبيب المخلص، لقد خرجت الشمس  
وسيصحى الناس من حولنا

فقلت لها:

- أسمعني يا حياتي، سوف نفترق بعد ساعات، أرجو أن تعلمني  
بأني بانتظارك إلى آخر لحظة من عمري، وسأهرع لمساعدتك وخدمتك  
أينما كنت وبكل إمكانياتي.

- لا أشك في ذلك يا حبيبي، وأنا شاكرة لك ولأفضالك

وبعد لحظات صمت قلت لها:

- تارا أيتها المسافرة الحبيبة

فقلت:

- نعم يا شفان

- سوف أكتب عن رحلتنا هذه وعن قصة حبنا أنا وأنت، وهذا  
وعد أقطعه على نفسي، وستظل كلمات رسائلنا باقية، لعل فيها ما ينفع  
الناس لكي لا يغيب الحب عن عقولهم إلى الأبد في خضم هذا الزمن  
الرديء، وفي ظل هذا الصراع المجهن من أجل المادة.

فقلت:

- لكم أتمنى أن يتحقق ذلك

امتلاً المخيم بالحركة، فقد عاد من خرج من مخيمه لأداء صلاة  
الفجر، وأشعلوا النيران لإعداد الخبز وتحضير الشاي أو القهوة وطعام  
الفطور. وكانت تلك الفعاليات تشبه إلى حد كبير ما كان يحدث في  
القرى صباح كل يوم، باستثناء أصوات الحيوانات الأليفة التي يملكها  
القرويون عادة. وكانت عدة عائلات أخرى تستعد ذلك الصباح لبدء  
رحلة العودة إلى بيوتها، غير مأسوفة لأنها لن تترك وراءها غير الآلام  
الكثيرة والعذاب الذي تجرعه، إلا أنا وتارا فقد أجبرنا على أن نترك  
الذكريات الأعز على القلب والنفس والعقل، فسوف نترك سبب قوتنا

وصمودنا ومرحنا، نترك ذلك الشعور السحري المعنوي الذي يجعل من هزيمتنا أمراً مستحيلاً، وبالرغم من ذلك هاهي تلك المشاعر النبيلة التي تبعث فينا الراحة في معركتها دون أن تموت، فالحب لا يموت، بل هو رسالة الإنسان في الحياة الدنيا، ولكنه يمكن أن يتعرض للقسوة والغدر والاغتيال، فيهزم ليس لأنه ضعيف، بل لأنه لا يحارب بسلاح فتاك أو خنجر مسموم.

ثم اجتمع شمل أسرتنا وبدأنا بتناول طعام الفطور، وكنت أنظر إلى وجهها الجميل الذي أحبته كثيراً، أكثر من أي شيء آخر، وأخذت أمعن النظر فيه أيضاً، وكانت عيوننا تتحول كل في نفس الآخر، وكانت تلك النظرات المخلصة في محبة وألم من هول الفراق وقسوة الوداع. وبعد طعام الفطور ساعدناهم على جمع وحزم أمتعتهم، وقلت لها في خطوة دامت لحظات:

- لا أصدق أننا نفترق عن بعضنا أيتها الحبيبة الغالية

فقلت بهدوء

- لقد كنا ندرك بأن هذا اليوم ينتظرنا أليس كذلك؟

- نعم ولكنه صعب للغاية

- علينا أن نتحمل ذلك أنه قدرنا الأحق

و بكينا معاً، وقلت لها:

- أنك لا تعرفين ما يحصل لي هذه اللحظة ولن تعرفي ذلك أبداً،

أنني أتمزق وأتحول إلى كتل صغيرة

فقلت:

- هيا كفى بكاء

وناولتني منديلاً ورقياً، وطلبت مني تخفيف دموعي. ولا بد أن أخوتي وأختي لاحظوا ذلك الألم الكثير في وجهي، والمحنة القاتلة التي عشناها أنا وتارا في اللحظات التي سبقت الوداع ولكنهم لم يلمحوا بأية إشارة أو كلمة كأنهم لم يلاحظوا شيئاً. وعندما حانت لحظات الرحيل، لم يكن وداعاً كما كنا نتكلم عنه أنا وتارا أن يحدث بهدوء، إذ لولا الناس حولنا لكان الوداع قد تحول إلى دراما يهتز لها الجبل وتحنو عليه السماء الزرقاء الصافية. وفي العراء وقبل أن تصعد للسيارة نظرنا إلى بعضنا البعض بعمق دون حياء، وقال كل منا للآخر:

– أهتم بنفسك مع السلامة

ولم ننطق كلمة (ثوتسيم) بل قلناها لبعضنا بواسطة العيون، حيث كانت النظرة الأخيرة محملة بكل حبنا واحترامنا وأحلامنا والحرمان والأمل الذي لا يود أن يموت أبداً في تلك اللحظات. ثم تحركت القافلة وغابت تارا إلى الأبد.

فقال فهمي:

– أن تارا أميرة

و قالت نرمين:

– لقد أحببتها كأنها أختي، وستترك في نفسي فراغاً واضحاً

و هكذا وبعد أن، شهدت (چهل) قصة حب طاهرة، عادت لتشهد دموعاً غزيرة وغالية من نوع آخر غير تلك الدموع التي اذرفت على قبور الضحايا الكثيرة بسبب البرد والمرض والجوع.

بعد رحيها شعرت أنني كتلة فارغة، إطار يخلو من كل شيء، وبدأ  
صدري يؤلمني، وعدت إلى ذلك الشعور حيث نكتشف في لحظة أننا لا  
شيء، بلا هدف، بلا قوة، وتتحول الأشياء حولنا إلى عناصر متشابهة،  
بلا لون أو طعم.

وهكذا مات حلمي الجميل أيضاً، وثمانيت أن يتحقق جزء من حلم  
الكورد هذه المرة بعد فاجعة الهجرة الجماعية تلك (رحلة المليون) وينعم  
أخيراً بالحرية ولو إلى حين.

تَمَّت





## تارا ورحلة المليون

و بمرور الأيام أصبح الجزء العلوي من المنحدر المشرف على الوادي مقبرة لشهداء رحلة المليون و كانت تكبر و تتوسع مع مرور الأيام ليحضن ترابها تلك الأجساد الطاهرة التي صارت الموت بشجاعة نادرة ، و عندما هزمها المرض و البرد و الجوع عادت الى احضان تربة وطنها و ستظل تلك المقبرة شاهدا على غباء هذا الكائن الأحمق الذي ندعوه ( الأنسان ) ، الذي لا يعينه عقله الجبار على التخلص من ( جنون التاريخ ) و أعني به الحرب و القتل و التعذيب و الدم و الخوف و القسوة . تلك النفوس الأبية التي رفضت ان تموت كالخراف ، و لم ترحمها الأقدار ، بل كان كل شيء ضدها حتى عوامل الطبيعة تلك السنة في ذاك الربيع المتأخر ، حيث ضرب أبطال ( جه لي ) مثلا خالدا على رفض العبودية ، و علمت الأجيال كيف يجب ان نعشق الحرية مهما كان الثمن ، فأمتزجت دمائهم الزكية بدماء الوفا الشهداء الذين سقطوا بين أحضان الجبل عبر أجيال كثيرة ، و كان درسا بليغا للأجيال بأن الحرية لا تمنح بسهولة .

Bibliotheca Alexandrina



1237123

ISBN 978-9953-561-70-7



9 789953 561707



مكتبة حميد بن العفريت  
للطباعة والنشر والتوزيع

كورنيش المزرعة - مقابل ثكنة الحلو - بناية الحسن سنتر، بلوك (2)، ط4 - بيروت - لبنان  
تلفاكس: 00961 1306951 00961 7920452 00961 3790520 - ص.ب. 6501 - 14  
E-mail: library.hasansaad@hotmail.com